اليك يا سورية

●

بعد

اليوم ، لم نعد نسبح في الاحلام ، ونتغنى في الاماني .. ولم يعد الاحرار أمزاقاً ، بين خطة خسف وخطة تشريد . ولم نعد يرهبنا – كيف نشاء – الاعلاء والتشييد ، فقد اذبنا في اتون ارادة الحق – وارادة الحق من ارادتنا – كل ما افتن به الباطل من اغلال وقيود .. لقد اردنا ، فكان لنا كل ما نريد ...

ألا ، فلينظر الانهزاميون الضعفاء ، الذين تواروا جبانة ومخانة . والآخرون الذين « قنطرهم » الباطل الى غاياته الدنيئة جسوراً ، كيف تتمدد طبيعة الحق ، فتجعل من باطل القوة ضعفاً ، ومن ضعف المحقين قوة بل اعصاراً ...

هناك في ضمير الكون ، يسري روح الحق على استخفاء ، ولكن لا يلبث حتى يفجأ وبطل بوجهه ، وكلما اطل وجه الحق يذوب الظل في الشمس ...

« ويل للضعفاء » كلمة بمعنى هم يقولونها ، وكلمة بمعنى نحن نقولها .. يقولونها من وحي الباطل وضمور الذات ، ذلة واستخذاء . ونقولها من وحي الحق وتمدد الذات ، غلاباً وكبرياء .

نقولها ونعني : الويل في المحن والنكبات والتجربات القاسية ، للضعفاء المتهافتين الذين لا ايمان لهم ، يدهم بخضم من الحيوية المتدفقة المتحدية ، الى خضم من الامل المتطلع المتفائل . فلا ينقطع عليهم معنى عن معنى ، بل يتمددان في خطة النضال تمدد الروح وارادة البقاء ... حتى ليحس المناضل المؤمن ، بان كل الم جديد ، وجه لامل جديد ...

واما ما وراء ذلك من كل ما نطالع به ، فتلك مظاهر القوة ومظاهر الضعف حسب ، اما طبيعة القوة وطبيعة الضعف ، فهي في النفس ولا شيء وراء حدودها :

من يهن يسهل الهوان عليه . ما لجرح بميت ايلام ...

تختلف بين حنايانا ، الوان من نشوات لا ينهض القلم بها ، فقد اخذنا الطريق للسير بحقيقتنا في مواكب الانسانية الصاعدة ...

والحرية – التي هي شعور مطلق بامتلاك الذات ، والذات التي هي وجود وطبيعة وحياة في انواع من الشمول والعمق – تعني الشعور بامتلاك كل اولئك جميعاً .. فنحن ابغضنا العبوديات واشباهها ، لانها التيه الذي نضل فيه عن حقيقتنا . والمستعبد يعمل فيك عمله ، حتى لا تحس الا بانك بعض من فضلات معناه ...

ان الطائر الحبيس ، يحس بانه في تيه عن وجوده . انه لم يعد الطائر في حس نفسه وحس خصائصه ، بل كتلة من اللحم في كتلة من الريش تزوّرفيه شكل الطائر ، فهو لا يفتأ ينشد عودة الروح عودة المعنى ، تارة بالحنين الحاناً ، وتارة بالنضال الواناً .

الحرية ، بدء الطريق ، والجهاد الشاق ، بسبيل التعبيد وسبيل النهوض ، يجيء بعدها .. فلنعمل بنائين صادقين ، كما عملنا مهدمين محررين .

والا ، فلا تزيد الحرية عن انها كلمة تائهة ، في سفر اضاع قيمته .

نريد الحرية اوضاعاً ومن ورائها الضمائر ، ونظماً ومن ورائها المبادىء ، وحياة ومن ورائها الرغبات المخلصة .. والا فنحن نخسر مجد نضالنا الطويل بسبيل الحرية ، ونخسر الحرية نفسها بانتحارها في ايدينا .

فلنعرف كيف نحول افراح الجلاء ، الى طاقات وقوى ندفع بها في هيكل تخلقنا الجديد ...

فخلوداً وسلامة – يا يوم الجلاء – حين تطل علينا بوجه آخر لجهاد اكبر ...

عبدالله العلايلي

رسالة الشباب العربي

بقلم الدكتور نبيه امين فارس

استاذ التاريخ العربي بجامعة بيروت الاميركية

*

ان الشباب العربي على موعد مع المستقبل . فقد القيت على عاتقه تبعة مصير البلاد العربية وتحقيق اهدافها . فما هي العدة التي اعدها لذلك اليوم حتى يضمن للعروبة مستقبلها ويسير بها في طليعة الامم ، للمساهمة في التاريخ مساهمة حرة والخلق جزء من حضارة العالم . وان نظرة واحدة الى التاريخ تبين لنا ان العروبة التي ندين بها كانت ولاتزال قادرة على خلق جزء من حضارته . هذه حقيقة معروفة مسلم بها لا يدخلها شك ولا يداخلها جدال . فلننصرف اذاً الى مشاكل حيوية حجبت عن عيوننا منذ ولى العرب وجوههم نحو الماضي واركنوا الى المعيشة في احضانه فاستولى عليهم السبات العميق . وقبل ان ألج هذا الموضوع لا بد لي ان آتي بايجاز على الاسباب الاساسية التي ادت الى تأخر العالم العربي بعد ان حمل نبراس العلم والحضارة طيلة اربعة قرون من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر .

طرأ على العقلية العربية في القرون التي تلت العصر العباسي الذهبي عوامل شتى ادت الى تحجرها وآت من هذا التحجر الى الفشل . واكتمل هذا التحجر بمجيء السلاجقة الذين اكتسحوا الشرق العربي في القرن الحادي عشر ونشروا سلطانهم عليه . كان همهم الاول توطيد دعائم ملكهم فأسسوا المدارس النظامية واوجدوا مناهج للتعليم غايتها تهيئة الرجال لوظائف الدولة . فتكالب الناس عليها وعلى الوظائف تكالبهم عليها في عهد الانتداب الغابر . وقد ندد الغزالي بمناهج التعليم هذه بغايتها المادية النفعية وبالروح التي احدثتها بين علماء عصره فقال :

« فرأى الناس عز العلماء واقبال الائمة والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم فاشرأبوا لطلب العلم توصلاً الى نيل العز ودرك الجاه فاكبوا على علم الفتاوى وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم . ومنهم من انجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين وبعد ان كانوا اعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم » .

وحاول الغزالي ان يربط مناهج التعليم هذه بفكرة روحية تبعث الوعي الاخلاقي في الفرد فلم يفلح لكثرة المرتزقة بين رجال العلم . وزاد في الطين بلة تفشي الانتهازية الكلامية بين الفقهاء وقادة الفكر وطغيان المصلحة الفقهية والرسوم الجدلية على الابحاث العلمية وتسلط الكلام والمتكلمين على جميع نواحي العلم . فانصرف العرب عن الجوهر الى العرض وعن الروح الى المادة فتم تحجر العقلية العربية ولم تنحل بعد . وقد تعامى العرب في فعلهم هذا عن حقيقة اساسية في تاريخ الحضارة والعمران وهي ان ايام الشعب المثمرة المنتجة النافعة تصبح معدودة حالما يقتصر اهتمام افراده على ما يعود عليهم مباشرة بالمنفعة المحسوسة الملموسة . ولم تفشل الحضارة العربية آنئذ لفقدان الذكاء والفطنة والمواهب لدى العرب او لنقصها بل لفقدان الاخلاق الفردية والاجتماعية وفسادها ولله در شوقي القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولم تفسد الاخلاق الفردية والاجتماعية الا لانصراف العرب عن الجوهر الى العرض وعن الروح الى المادة .

واليوم تعترض الشباب العربي مشاكل شتى . واذ اتصدى للبحث فيها بمنتهى الصراحة لا ابتغي تثبيط العزائم بل استفزازها لاني اؤمن بالشباب العربي واثق به ولاني مقتنع بانه كفوء لاية تبعة او مسؤولية .

يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعودت النظر الى الماضي والتغني به دون ان تستفيد من وحي التاريخ شيئاً . وهي اشبه بجندي تجاوز السن فاحيل على التقاعد لا عمل له سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض غمارها وعرض الاوسمة التي نالها وانتظار الأجل . وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد جميع حياته وراءه وليس امامه الا القبر . فعلى الشباب العربي ان يولي وجهه نحو المستقبل وان يعقد النية على ان يكون مستقبل العرب خيراً من ماضيهم . واذا اقتضت الحال يخرج على الجيل القديم في بلده فليفعل لان بركة الاجيال المقبلة خير من بركة الوالدين .

وقد تيسرت للشباب العربي في الآونة الاخيرة فرص عديدة فاستفاد منها الى حد . اتقن مثلاً صناعة الطب ولمع في مهنة المحاماة وبرز في الهندسة ونال قسطاً وافراً من النجاح في كل ما انتحله وتعاطاه . وليس في هذا مدعاة للعجب لان الشباب العربي يفوق غيره فطنة وذكاء . غير انه لا يزال يتلمس طريقه في الحياة ويظهر في اغلب الاحيان مغلوباً على امره ، مشتت الافكار قلق البال عديم الثقة بنفسه تتضاربه الاهواء والمذاهب الفكرية . ولعدم ثقته بنفسه تراه يهوى المديح ويجفل من النقد الصريح . يدخل معترك الحياة

معتنقاً مبدأ من المبادئ، فلا يلبث ان ينحرف عنه بفعل العوامل المادية . ولعل السبب في ذلك ان لديه من صفات الرجولة كلها الا واحدة – تلك التي تعطي الحياة معنى وحقيقة، فتبدد من حولها غيوم الشك وتزيل من امامها عقبات التذبذب والتردد – تلك الصفة هي متانة الاخلاق وصلابة العقيدة ولا تتم له الا اذا قامت نصب عينيه قبلة فكرية روحية يولي وجهه نحوها فتوحد قوى نفسه وتستحيل بها حياته من وجود معدوم الغاية والانسجام الى حياة ذات غاية ووئام .

وقد عرف الاعداء موطن الضعف في الشباب العربي فاخذوا يهاجمونه من تلك الناحية وينصبون امامه قبلاً متعددة ادت الى التشويش والتلبيس وكلها دخيلة تنبت من غير ارضه وجميعها بعيدة عن ذوقه وميوله متنافية مع نفسه وروحه . فمن شيوعية روسية وفاشستية ايطالية ونازية المانية وديمقراطية انجلوسكسونية كلها تنبع من غير بئره وتجري من غير عينه . وانا مستعد ان ادين باية فكرة من هذه الفكر وان اعتنق اي مذهب منها ان كانت اصولها نابتة من تربة عربية . وانا لا احجم عن ان ادين بالشيوعية مثلاً ان كانت من تربة عربية ، او ان اتعلق باهداب الفاشستية او النازية ان كانت بذورها عربية ، وتبعاً للمبدأ نفسه ارفض الديموقراطية اذا لم تغذّ جذورها تربية عربية .

ورب معترض يقول : ما هذا التعصب وما هذه المغالاة . وهل تخضع الفكرة لحدود جغرافية وتتعرض لتعريفة جمركية او تحتاج الى جواز سفر في ذهابها وايابها . كلا . فالفكرة عالمية في اساسها وطبيعتها – لا تعرف حدوداً جغرافية ولا تعترف بها ولا ترضخ لتعريفة جمركية ولا تحتاج الى جواز سفر . غير اننا سنخون الامانة التي وضعت في عنقنا ان قنعنا بالتقليد واكتفينا بعيشة الطفيلية الفكرية، نعيش على الغير فكراً ولا نقدم للعالم شيئاً . وسنوغل تراثنا ونغدر به ان رضينا بالفتات الفكرية التي تتساقط عن موائد غيرنا بعد ان كانت موائدنا مكدسة وكؤوسنا رياء، وان ما ينعم به العالم الآن من مثل عليا وآمال مصدرها شرقنا جرت على افواه انبيائه وشفاه رسله . ولا يغربن عن البال ان القدس وبغداد تسطعان في الفلك الفكري بنور يضاهي في لمعانه وبهائه نور اثينا وروما .

ولا بد للانسان في ارتقائه ان يبلغ درجة يرى فيها الحقيقة بعين اليقين فيدرك عندئذ ان التقليد انتحار ولا يقدم على الانتحار الا المجنون او اليائس . وقد طغت موجة الانتحار الفكري هذا على الادب كما طغت على السياسة . وعندي انها لم تطغ على السياسة الا بعد ان طغت على الادب وطمت عليه كما طغت على اكثر نواحي حضارتنا . فنحن ابداً مقلدون وبالنتيجة مقبلون على الانتحار فبيوتنا مبنية على طراز اجنبي وجدرانها محلاة زخارف غريبة . وآراؤنا واذواقنا ترجع آراء الغير واذواقهم كما يرجع الغار نهيق الحمار .

فيما انا اعد هذه الكلمة وقد انتابني بعض الضجر مما انا كاتبه توقفت عن الكتابة وتناولت لفافة من التبغ لاحجب عني بدخانها جيوش اليأس . فوقع نظري على غلاف احدى المجلات الحديثة وقد ظهرت على الغاشية منه اعلام الدول العربية بالوانها الاربعة فترحمت على صفي الدين الحلي وتناولت المجلة فاذا هي « الكتاب » والعدد عددها الممتاز للشهر الاول من شهور السنة الحالية . وقد اطلق على هذا الشهر اسم « يناير » سامح الله المقلدين . وحسب عادتي فحصت محتويات الكتاب فلفت نظري عنوان هذا نصه : « اتجاه التأليف في عام ١٩٤٥ » . فقلت في نفسي وهل هناك مقياس افضل من اتجاه التأليف للتحقق من اتجاه التفكير . ففتحت الكتاب الى ان وصلت الى الصفحة الثلاث مائة والثانية والتسعين حيث يبتدىء المقال . واذ كانت مصر تسير في طليعة البلدان العربية من حيث التأليف تتبعت سير التأليف واتجاهه هنالك . وهاكم ما وجدت من الكتب أتلو عليكم اسماءها وفي هذه الاسماء وصف لها وتعيين . « نهر الرين »، « الولايات المتحدة »، « روسيا » . ثلاثة كتب في مواضيع غير عربية . « قناة السويس » لشنغلر، « اميركا » لستيفن فنسنت بنيه، « عصر الطراوة الذي نعيش فيه » لشتولير، « جغرافية الحدود » لفاوست، « جنيف » لبرنردشو، خمسة كتب مترجمة . وظهر في مصر ايضاً سبعة كتب في العربية وهي كلها اما مترجمة مثل « في التربية » لبرتراند رسل او ذات مواضيع غريبة عنا كالتربية الانجليزية لمحمد عطية الابراشي وما يصدق على هذه يصدق بالاجمال على سائر الكتب التي ظهرت في مصر وعلى ما صدر في غيرها من البلدان العربية .

وخلاصة القول، – ما لم تتحرر ارواحنا من ذل العبوديات النفسية كالتقليد ، مثلا لا يتيسر لنا الاستقلال الروحي وان نمهد امامنا الطريق الى الاستقلال الفكري وبكلمة اخرى الى اسس الاستقلال السياسي . وما دام ادبنا الحديث منقولاً وافكارنا افكار غيرنا بقيت اسس الاستقلال السياسي الفكرى متزعزعة .

لقد حان الوقت لتعريب ادبنا ولانشاء رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية . ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانو دي برجراك والبؤساء وغيرها من روايات الاجانب . ومن الصعب ان نرتجى من نشء لم يترعرع الا على مثل هذه الروايات ان يشب على عقيدة عربية راسخة . ومن واجبنا ان نهيء للنشء الجديد رواية

من طينة عربية نظير الروايات التاريخية التي سالت من قلم الطيب الذكر جرجي زيدان ودمه وروحه . ويا ليت كتابنا وراء الترجمة والنقل يعنون بالرواية العربية ولاسيما تلك التي تنسج لحمتها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحي والالهام ينتظر مصطفى من ارباب الاقلام ليحطم الاصنام ويحرر ادب قومه من ربقة الاجانب وتفكير الاعجام .

ولنا في التاريخ العربي خير مثال . فقد مر العرب في دور كانوا فيه نقلة ومترجمين . امتد هذا الدور من اواسط القرن الثامن الميلاد حتى اواسط القرن التاسع ونقل العرب جل تراث اليونان الفلسفي والطبي والعلمي والرياضي وترجموا للهند وفارس واخذوا عن اليهود والسريان والاقباط . غير انهم لم يقنعوا بحياة الترجمة والنقل وسرعان ما استحال هذا العصر الى عصر ازدهار وابتكار وابداع فسار العرب في طليعة الامم واصبحت لغتهم لغة العلم والفلسفة والتجارة من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر . ولو قنع العرب آنئذ بالترجمة واقتصروا عليها لبقوا تحت وصاية اليونان الفكرية وانتدابهم الثقافي حتى هذا اليوم . وعندي ان العرب اليوم ان بقوا قانعين بالترجمة والنقل بقوا تحت نير الاجانب الفكري وبقوا تحت نيرهم السياسي عرضة للاستعمار والاستعباد ولن يكون للجلاء معنى او حقيقة اذا اقلعت جنود الحرب الى حيث ألقت وبقيت جيوش الفكر في البلاد . والاستعمار الفكري والانتداب الفكري والوصاية الفكرية اشد نيراً وانكى مما من الاستعمارات والانتدابات والوصايات السياسية . فهذه تستعبد النفوس وترهق الارواح .

وقد تولدت من فقدان القبلة الفكرية لدى الشباب العربي مشكلة اخرى تتجلى في سهولة انحرافه عن المبدأ لاسيما عند اصطدامه بالعوامل المادية . فكم من نفس اذكاها زناد المبادىء فاضرم فيها نيران الحماسة والتضحية فما لبثت هذه ان خمدت عندما طمت عليها مياه المصلحة الشخصية وعصفت بها الرياح الصفراء . وقد كان للثقافة اللاتينية في بلادنا اثر سيء من هذا القبيل . فقد افسدت تلك الثقافة اينما حلت جهاز البلاد الاخلاقي والسياسي فتغلغلت فيه الرشوة وسار فيه الجشع وفقدت منه الامانة . ولن يكون للجلاء العسكري معنى او حقيقة حتى يتم الجلاء الثقافي وتجلى القلوب من صدأ الفساد السياسي والتذبذب الاخلاقي .

وقد ادى فقدان القبلة الفكرية لدى العرب وتضارب الفكر المزيفة بهم مع ما طبعوا عليه من الفردية والمغالاة فيها الى آفة اخرى لا بد ان تزول قبل ان تصل العروبة الى هدفها وتستعيد مركزها في التاريخ ، تلك الآفة هي العمل على حدة افراداً . وقد تتجلى هذه الفردية باوضح مظاهرها وابسطها في اعمال العرب التجارية . فهم يستثمرون اموالهم افراداً — تقوم مصارفهم على الافراد لا على الشركات وتجارتهم على حوانيت صغيرة ودكاكين اصغر ، فتضيع جهودهم من هذا التفتت وتضمحل . ولم تجتمع كلمة العرب ولم يلتف شملهم حول راية واحدة الا عندما جاءهم النبي الامين ورفع امامهم فكرة اعظم منهم ودربهم على العمل والتعاون في سبيلها وحبب اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها . فاستحال ضعفهم الى قوة وتفرقهم الى تضامن وقبائلهم الى امة ولهجاتهم الى لغة .

واليوم يعيش العرب في عصر علماني تجتاح بلادهم عوامل خارجية جبارة دفعت بها الى معترك القوميات المتطاحنة . وهم يجدون انفسهم لا محور فكرياً لهم تدور رحاهم عليه فيوجد في كيانهم جاذبية تحول دون تساقط اجزائه واضمحلالها . ولا يسعهم ان ينظروا الى الوراء لئلا يصبحوا مثل امرأة لوط عاموداً ملح على قارعة الطريق . عليهم ان يتابعوا المسير وان يستوحوا من تاريخهم محوراً فكرياً تدور رحاهم حوله فيبقى كيانهم متماسك الاجزاء وان ينصبوا من كنه تراثهم قبلة روحية يولون وجههم نحوها .

وانا انصب امام شباب العرب ومحط آمالهم قبلة فكرية روحية هي العروبة باوسع معانيها . عروبة تمتاز بسعة الصدر ورحابته وكبر النفس وكرمها . وسعت تراث الهند وفارس واليونان واختارت منه ما اختارت (وفي الاختيار دلالة على الحياة والحرية) وحافظت على روح البحث والتنقيب وابقته حياً وحملت لواء العلم الصرف لاجل العلم وقويت على الابتكار والابداع والاتقان وافسحت المجال لمساهمة جميع ابنائها في رفع صرح مجدها على اختلاف مللهم ونحلهم وسعت وراء الجوهر دون العرض وعلّمت وعملت بتفوق الروح على القوة وارتفعت فوق الافراد والعائلات والاقطار وهيأت لهم الفرص ليدخلوا خدمتها راضين وحببت اليهم ان يضيعوا انفسهم فيها فوجدوها وكانوا هدى للعالمين .

هذه هي قبلتنا الفكرية الروحية . ومتى ولى العرب وجوههم نحوها تتوحد قوى انفسهم وتستحيل حياتهم من وجود معدوم الغاية والانسجام الى حياة ذات غاية ووئام .

عندئذ — عندئذ ينتصب الشباب العربي ويتقدم لمواجهة موعده مع المستقبل — مرفوع الرأس رابط الجأش راسخ الايمان قوي الساعد ثابت القدم ، لا تستهويه الوظيفة ولا ينحرف عن مبادئه طمعاً في مغانمها . له الرأي وله الارادة ولديه الاقدام والعزيمة . يتصف بالشرف والصدق والجرأة اذا اعترض طريقه دجال لا يحجم عن رد تدجيله . وهو فوق كل شبهة او ريبة في السر والعلانية — هو عربي .

نبيه امين فارس

أفراح الجدود

« مهداة الى الذين عرفتهم من شباب البلاد العربية »

بقلم شكري فيصل

ليسانسيه في الاداب

.. دعني يا صديقي اشرب كأس الظفر ، وأعب منها حتى الثمالة

.. دعني أعلها مرة ، وأنهلها تارة

فقد انطلق الهزار الحبيب بعد سجن طويل ، وتفتحت له أبواب العيش العريض

كان يرى الافق فلا يستطيع أن يحوم فيه

ويستمع الى الزغاريد فلا يملك ان يتجاوب معها .

ويرى بعينيه مولد الفجر فلا يغني لولادته وبسمة الزهر فلا يضحك لبسمته

وحياة الكائنات على الارض ، فلا يشاركها هذه الحياة ..

.. أما اليوم .. اليوم يا صديقي ..

فلاهم معك في دنيا من النشوة ..

فهذا الهزار يضرب بجناحيه في الهواء

ويطوف في جنبات السماء

ويغني ملء فيه ما وسعه الغناء

ويا ما أروع الغناء

*

.. دعني انتشي ، يا صديقي ، من هذا السحر الحلال

فأنا اليوم اتفتح للحياة على عالم من الامل المديد

وأبسم للعمر على ضحكة هذا الوليد الجديد

.. اننا نولد معا في الوادي الخصب الممرع والسهل الفسيح النضير ..

.. فانطلق معي نرتو من هذا النبع المتحدر الصافي ..

فلطالما اشتد بنا الظمأ ، ولطالما آذتنا الظهيرة وشوتنا نارها وأحالت أمواهنا سرابا

.. أما اليوم .. اليوم فاشرب يا صديقي على ذكر هذه الدنيا الجديدة !

ألق بيديك في الماء فلن ترى سرابا

واستلق على حفافي الغدير فلن تحس يبابا ..

هذه الاطلال ! . أتراها كيف استحالت الى ظلال

وهذه المغاور المظلمات كيف بدت منائر ضاحكات !

لقد ضمخها النور يا صديقي

فاملأ كفيك من هذا الماء

رو به روحك

ايها الصدي الظمآن

*

.. دعني يا صديقي استروح معك برد الراحة وأحس طعم الهدوء

فلقد طال بنا السرى ، وأدمت أقدامنا الاشواك ..

.. لطالما سال جرح قبل ان يلتئم جرح !

ومع ذلك فقد كنا نمضي :

الوعود ملء طريقنا

والصعاب من حوالينا ومن امامنا

والظلم ، اقبح الظلم ، عن ايماننا وشمائلنا

والسياط ، امر السياط ، تلهب ظهورنا

وشبح الموت ينثرونه امام اعيننا في كل صورة فزعة بشعة وكنا نهمس ياصديقي حين يسمحون لنا بالهمس :

ان الطريق طويل .. وسنقطعه

وان المرحلة بعيدة .. وسنجوزها

وان من امامنا اهوالا .. لن نشيب لها

ولقد صدقنا ما تعاهدنا عليه

فتعال معي يا صديقي قبل ان نبدأ خطوتنا الجديدة نلق نظرتين :

نظرة الشكر ونظرة الفخر

اما الاولى فللسماء واما الثانية فللشهداء

ثم .. ثم غب معي يا صديقي عن دنيانا

دعنا نغمض اعيننا على حلم ذهبي عريض

ايها المتعب المهدود

*

للناس ما شاءوا يا صديقي .. الزينات والزغردات ، والافراح والمباهج ولنا فوق ما للناس .. وامعى ما للناس .

لنا يا صديقي الفرحة الكبرى تلفنا باثوابها الوردية الناعمة المجنحة ثم تهيم بنا ..

ستمر بنا عبر هذه السنوات الاخيرة ..

عبر الدموع والالام والاحزان وستقف بالاطلال التي عفت عليها النار

وستطيف بالبيوتات التي غالها الموت

وستطرق امام القبور التي علاها سنا الشهادة

وستدغدغ بانامها المتوردة وجنات هؤلاء اليتامى

وستطبع بفمها الرقيق قبلات الوفاء على خدود هؤلاء الايامى

وستهب ابناء الوطن للثواكل اللواتي فقدن ابناءهن في سبيل الوطن

ثم .. ثم سيستوقفها يا صديقي في طوافها صدى خفيف

ناعم كالحفيف

حلو كالنسيم

نير كالامل

فتطرق خاشعة امامه لانه صدى ايام فيصل الخوالي

.. لم تمت تلك الايام يا صديقي ..
ولكنها غابت في ضمير الدهر ، لتولد من جديد
اقدر على احتمال الحياة ، واقسى على نوائب الزمن ، واشد ادراكاً لخداع الليالي المغررات
.. فلنخشع يا صديقي معاً ، في هذه النشوة العريضة ، امام روعة الذكـرى
.. ولنحتفظ بعصاها السحرية
فهذه العصا السحرية شقت لنا طريقاً يبساً
لا يخاف دركا ولا يخشى
فاسلك معي هذا الطريق
ايها الصديق التائه الضائع

*

والان .. تلق مني يا صديقي عبرة الافـراح
دعني ارقها على يديك ! ولا تسلـني ما يبكيني
فانا انا لا اعرف ما يبكيني
انها الفرحة التي تعربني
انها الدموع التي تبعثها المباهج وتسكبها الاعراس
فلقد تشققت عمايات الليل عن شعاعات الصبح ..
.. اشد ما خبطنا يا صديقي على غير هدى وضربنا في الارض على غير طريق
.. اترى معي من وراء عيني وعينيك المغرورقتين
كيف يطل الصباح بعد طول التسهيد ،
وينبلج بعد شديد التوق
.. اترى كيف ينفتح الليل عـن الفجر الضحوك كالثغر
وكيف ينبت فيه الشفق كالخـد المتورد
وكيف تزين حواشيه الالوان
ثم كيف تصحو في دنياه الارض ،
وتتسرب اليها الحياة مرحة نشيطة
كانها تستمع الى لحن من السماء مرح نشيط !
.. لقد اكتمل لك الصباح ياصديقي
فلتكتحل عيناك بهذا الخاطر المونق
ولتنعم به ، ولتحدق فيه
.. كنت تحدق في الظلام فلا ترى شيئاً
.. اما اليوم فسترى معي الرداء ، وستحس البهجة
وستدرك فنونا من الحسن ، والوانا من النعيم
.. ولا علينا ايها الصديق ان نذكر الليل بكل مآسيه .. فنبكيه
او تغلب علينا دمعة الفرح فنريقها
لا علينا ان نبكي احيانا
فما اجمل بكاء السماء في ضحك الربيع

*

يا صديقي ..
ما العمر .. لولا هـذه الايام ..
ظلام .. فهلا عبثت من لذات هذه الايام
ما الدنيا .. لولا الحرية الضاحكة ..
عبوس وجهام . فهلا طردت عنك العبوس والجهام ياصديقي !
ما العين .. لولا هذه الافراح ..
كومة رماد .. فهلا اغترفت لها الاقباس
ما انا .. ما انت .. وما الناس .. طيور ..
غالها ماكر قناص فلتتغن هذه الطيور على الاصوات التي تهمس لها من ماضيها القريب والبعيد ولتتمل الحرية في الدنيا .. فلطالما جاءت الى هذه الحرية ولتشفها الافراح ..
فما اكثر ما شفتها الاحزان ..
تعال نحيا حياة اليعربيين . فلم تعد حياة اليعربين وهماً يغادينا
تعال .. تمشي على الورد .. فالورد يغرينا
تعال .. نجوز الحياة . فالحياة تنادينا
تعال يا صديقي الذي ينسم عليه صبا نجد .. في نجد
ويكتحل بانوار النبي .. في بطـاح الحجاز
ويصيب كل اليمن .. في اليمن
وينعم بخيرات السواد .. في العراق
ويغيب في سحر الدنيا .. في لبنان
ويطمئن على الضفاف .. في النيل
ويستظل بالجهاد العريق .. في الجبل الاخضر
ويعتصم بالصخور الصـلاب .. في اطراف المغرب
تعال يا صديقي هنا وهناك
ان الدوحة الكبرى التي تمتد ..
تستلقي على كتف الصحراء في الشرق
وترمي باطرافها تداعب عباب البحر في الغرب
هذه الدوحة التي ارادوا ان تجتث
أخلفت اغصـانا ، وانبتت اوراقا ، ورفت أزهارا
ان عبيرها ملء جوارحنا
فتعال معي نبدأ منها دعوتنا الجديدة
انسانيتنا الكبرى الصافية
الصافية في المنبع . والطريق . والمصب
لان من السماء نبعها
وفي ظلال الخلد مصبها
وفي طريق الهدى والخير والبر طريقها
يا صديقي .. هذي يدي .. تحمل قلبي
والك تحياتي

دمشق — **شكري فيصل**

دمشق

●

دمشق انطلاق الربيع الجديد
وريحانة نُديت بالهدى
على مهدها رائعات النبوغ
وفي تربها المسك مسك الخلود
تندت مسارحها بالسماح
وما هي الا كتاب البقاء
مطاف الخلال مراد الجمال
ملاعب حافلة بالمنى
فما يعرف القلب معنى الاسى
على كل قلب محب رباب

واشراقة الفجر اما ابتسمْ
وزنبقة رويت بالحكم
وفي ساحها قبسات الهمم
وفي جوها العطر عطر الشيم
وماجت أباطحها بالكرم
وما هي الا سجل العظم
ملاذ العهود مقر الذمم
مراتع طافحة بالنعم
وما تدرك الروح طعم الالم
تغني ، وفي كل ثغر نغم

دمشق — انور العطار



يا دمشق ! من هنا من ابنائه

بقلم صلاح الاسير

★

يا دمشق ! . . .

. . . كانت الارض طفلة بعد، والنور والظلمة يمرحان على وجه الكرة ! . . والبراعم تحمل ازهار العصور في الاعماق، يومئذ كانت اليابسة تتشقق ليعلو جبل بين سفحين وتتقلص على نفسها خوف الماء ! . . يومئذ كانت جنبات الكون المقفر تتلفت صوب المنبسط الفسيح ما وراء سيناء ، منتظرة مولد اول مدينة على وجه الارض ! . .

وعلى ارضك يا دمشق ولدت الهندسة ، زاوية عند حجرين التقيا ، فكان البناء، وكان اول عهد ابن آدم بالعمارة ! . . ويومئذ فكر الانسان بتحقيق فردوس جديد ، وغرق الفكر الخضل في الف سؤال وسؤال، لينطلق من نوافذك حياً يبني ، وحراً يصمم ، وواعياً يقدّر ، ومؤمناً يحقق على الدنيا رسالة الانسان ! . .

ويشرق من ارضك « سام » ويغرب « يافث » وهكذا كنت مفترق طريقين لشرق وغرب . . . ويذهبان الى البعيد البعيد ، لتمام كروية الارض ، وتمكين الانسان من الحياة ، وتحبير اول مخطط في علم الجغرافيا ! . . فالدنيا منذ كنت دمشق ! . . وقبلك لم يلتئم شمل في غير الكهوف والغابات ! .

ويدفع العصر اخاه العصر في سراديب الماضي ، لينهض عالم على قدميه، وتغمر الاثرة طرائق المعايشة ، ويضل الانسان سبيل الخير ، الى ان تنبت حواليك يهودية اعلنت التوحيد ، ونصرانية علمت الحب وقدست النفس واشاعت التسامح ! . .

وغب النصرانية ، كان ولد غسان في طريقهم الى البطاح والنجود ، في جوارك يا دمشق، رسل الجزيرة، التي كانت تتمخض بيتيم يحمل رسالة الله ، ويركز التوحيد تركيزاً . . . ولقد جاءك

اليتيم ... واكتحلت عيناه بزرقة تترامى على مدى كل عين ، وعاد الى مكة في انتظار افترار الهنيهة الولهى من فجر الجزيرة ! ..

ويمضي اليتيم الى لقاء ربه ، بعد انطلاق الفجر الغامر ، تاركاً حبة الرمل تقول لاختها حبة الرمل !

— من هنا مر محمد ... ومن هنا سيمر الرجال السمر في طريقهم الى دمشق ! . وتخرج القوافل السمراء من معاقل الوحي في طريقها الى الغوطة وتتلاقى بابناء غسان ، يد من هنا ويد من هنا ، وتفتحين يا دمشق الذراعين لاروع عناق بين الواحة والصحراء ويشرف ابن الوليد وصاحبه عامر من حصونك على اجمل بلاد في الدنيا ، بينما كان «هرقل» يتراجع على رابية ليحدق فيك طويلا .. ولتدمع عيناه وليقول قولته الملتاعة :

— وداعاً يا دمشق ! .. وداعاً لا لقاء بعده ...

وينتقل اليك سرير الملك العربي على يد معاوية ، فتتلفت من جديد جنبات الكون الذي لم يعد مقفراً ، لتشهد اداة للحكم عجيبة تعتمد التمرس اللبق ، وتقليب وجوه الرأي ، وتكريس الصلة بين حاكم ورعيته ، على نحو ما برح يهدي الناس الى الطريق السوي . اداة حكم شرعت للفكر ، وسكبت في الحرف دستور المعاملة ، واساليب التواصل ، وفتح آفاق المعرفة والخير والجمال ! ..

ومنك انبثق فتح علم الناس كيف الفتح .. هداية ومساواة ، فكانت الاندلس ملعب نورك الاول .. ويمتد النور الى اوروبا المظلمة ، على يديك يا دمشق ! .. فلولا فتحك الاندلس لما كانت بعد عصور ، يقظة باريس وبرلين ولندن وروما واثينا ! ..

وينتقل سرير الملك العربي الى بغداد ، ويذهب واحد من ابنائك شجاه انتقال السرير الى ضفاف الفراتين ، يذهب متخفياً وحيداً فرداً .. ليدخل الاندلس ، دمشق الثانية ، وليكون سريره ترضية عادلة لدمشق بعد انتقال السرير الى بغداد ، وتشهد الدنيا كيف تفتر « قرطبة » بالعلم الحق ، وربط بسيط بمركب ، وتحديد مواقع النجم اللامنظور ، وتأريخ ايام الفصول ، ومحاولة انشاء مركبة الهواء ! .

ويوم خبا نورك في الاندلس ، تواريت في ظلمات التجارب والمحن قروناً طوالا .. فكان شأنك شأن الام التي صبرت على غربة ابنتها ولم تصبر على الفجيعة بها ! .. الى ان استروحت ازاهيرك عبيراً قرشياً يهب عليك من الجزيرة ، فغرقت في الحلم ، بينما كانت عباءة فيصل تمسح باذيالها الرمال في طريقها الى الغوطة ، وعقاله الاخضر وكوفيته السمراء على خفق في الهواء ، ترجعه الرياح الاربع لتوقظك من جديد على صوت ابن النبي ! .

وكان الفرنسي الدخيل ما وراء ميسلون ! .. يفاوض ليسلب ويستعمر ويمتهن قدسية اقدم مدينة ! .. واعز تاريخ ! .. وفي ميسلون ، وعت الاودية صدى صيحة يوسف ، يندفع الى الموت في سبيل الذود عن دمشق ... وصرع الغاشم نسر دمشق ، بينما كان فيصل العرب يختنق بالغصة في طريقه الى الصحراء تاركاً على ضفاف بردى ، اغنية الثأر ! ..

ولقد دخلك « غورو » بل دخل على صلاح الدين في حرمة القبر ، ليقول للاسد المسجى :

— نحن هنا يا صلاح الدين ! ..

وتعالى الهمس من جنبات القبر :

— ولكن ... الى حين ...

ولم يسمع « غورو » وهو في زهوه وغروره ... وماذا على صلاح الدين ، وهو في فجوة من الارض ضيقة ، اذا سمع هراء الفاتحين ! .. لقد هزمهم حياً ، فماذا عليه اذا سمع تقريعهم ميتاً؟ .

ويجري بردى منشداً اغنية الثأر ... لتثوري انت يا دمشق ثلاث ثورات في ربع قرن ! .. ولتقولي كلمتك القاضية ، وحكمك الحاسم ، في وجه الفاتح الاذل ...

واليوم يا دمشق ! ..

اطلعته فجراً جمع على صعيدك الحر المستقل ، ثأر فيصل ، والتئام جرح يوسف ، وفرحة سلطان ، وغبطة الغزي ، ومجد الدم والدموع ! .. وتطلع العرب الى الشمس ! .

فمن هنا ، من لبنان ، من شرفات هذا الجبل ، اخيك في البلوى ، وصنوك في الثأر ، وتوأمك في القومية ، تتلفت قلوب اللبنانيين صوب ترابك الحبيب ، بعد ان جلا عنك آخر جندي دخيل ! ..

تتلفت القلوب والقمم والسفوح والشواطيء ، لتشاركك القطاف بعد الغرس ، والاخذ بعد البذل ، وتتلفت جنبات مصر والعراق والحجاز واليمن والجزائر وطرابلس ومراكش صوب عرس التحرير ! ..

وتتلفت الاندلس ! .. وتشق حجب الغيب ، لترى مجد امها في يوم نشوره ! ..

فيا دمشق ! ..

طاب عرسك ! .. عرسنا ! .. ان يوم لبنان قد حان ! ..

صلاح الاسير

شعوذة وايمان وعلم

بقلم الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

★

تتغير* الازمنة والشعوب وتتغير معها وجهة نظر الانسان الى الالم، فقد عزاه في البدء الى الشيطان ثم الى الالهة قبل ان يكشف العلم الحجاب عن حقيقة اسبابه، ولهذا كان له في معالجته ادوار يمكن الرجوع بها الى عصور ثلاثة عصر السحر او السيمياء، وعصر الايمان او السماء، وعصر العلم او الكيمياء .

عصر السحر

كانت طريقة الانسان الاول في التفكير قائمة على الخيال فألبس القوى غير المنظورة صوراً من عنده وجعل لانواع الالم شياطين تجانسها اسماً ورسماً فلالام الاذن شيطان له اذنان كبيرتان ، ولداء الملوك والنقرس شيطان يشبه الرتيلاء ، ولوجع الاسنان شيطان بشكل الدودة . شياطين متعددة تارة على مثال البشر وطوراً على مثال الحيوان، تأوي الى الاشجار والادغال، او تسف على سطح الارض مع الريح، او تهبط مع المطر من الجو فتدب في سكون الليل الى فراش المريض، او تنقض عليه من الوراء وتلقيه صريعاً .

وتتعاقب الاجيال ويتبدل وجه المعمور ، وتتحول المغاور والكهوف الى قصور غير ان الشياطين التي خلقها الانسان لاتفارق جنبيه، فهي التي انزلت الالم على ملك حور لتنزله عن عرشه، وهي التي تألبت في القرون الوسطى على فتاة مسكينة من مدينة وزربورغ حتى بلغ عددها في ذلك الجسم السقيم ٣٩١ شيطاناً تثير فيها شتى الاوجاع، وهي التي جعلت المجانين يطاردون في الغاب كالمجرمين .

مسكين الانسان في حالة جهله، وما اسخف الحيل التي حاول بها محاربة هذه الشياطين، يلاحقها ويخيفها ويقطع عليها الطرق كانها احياء عاقلة تشهد وتسمع، فهذه رؤوس من الطين واللبن يصفها حول فراش المريض وهذه نار يوقدها من شجرة البنج والحشائش العطرة امام كوخ القابلة لطرد الارواح الخبيثة، وهذه حلق وخواتم يعلقها في الاذان والانوف، ووشم مختلف الاشكال والخطوط، وتهاويل من حيوان ونبات وحجارة ومخالب النمر وغير ذلك من الطلاسم والرقى يقصد بها الى تخويف الشياطين واقصائها .

وبما انه متمتع بالنطق وهي مزية تختص به وحده دون سواه من الكائنات فلا العناصر ولا الوحوش ولا الشياطين قادرة على الكلام، فقد اتخذ النطق سلاحاً للتعزيم والسحر فكان ينادي الشياطين التي تعذبه ويصيح بها : اذهب عني يا ألم الرأس، اذهب عني يا ألم الضرس، اذهب عني يا ألم القلب .

وكانت المرأة في اول مدارج الحضارة سيدة البيت لان اول اعجوبة رآها الرجل هو تفجر الحياة من جنبيها فأدرك ان الولادة تغلب الموت، فوكل الى المرأة امر الدفاع لانها وحدها تستطيع بعاطفة الامومة وقاية الطفل وابعاد الشياطين عن المهد فكانت الساحرة والكاهنة معاً . ثم تنازلت عن مهمتها للرجل فجاء دور الساحر يبدل سحنته ويتردى بلباس الشياطين ويفلت من قيود المادة بالغيبوبة ليلج عالم الارواح باحثاً عن الروح التي تعذب المريض والساحر يحمل ابداً كشكوله وفيه الادوات اللازمة لعمله السحري من سن حصان، وعظمتين من فقرات النمس، وذنب افعى، وقضيب من البندق، وحنجرة عصفور، وحصاة مستديرة، فيدخل غرفة المريض وعلى كتفيه ملاءة مختلفة النقوش والالوان وعلى جبينه اكليل من العوسج فيقعد القرفصاء ازاء المريض ويأخذ بالدمدمة والنقر على الدف وهو يتهادى يمنة ويسارا الى ان يتولاه الذهول وابناء القرية من حوله يوافقونه في حركاته ونقره حتى يصل الى درجة من الاخذة يستطيع معها ان يسمع صوت الشيطان وان يراه فيدخل حينئذ رأسه في الدف ويصغي الى شروط الشيطان ويحاول اغراءه بالوعد والوعيد واذا لم يفلح انهال عليه بالعصا اي اخذ يضرب المريض . ويحذو الباقون حذوه فلا يعرف المسكين من اين يرد هذه الضربات .

عصر الايمان

ثم تلفت الانسان الى السماء فجعل سبب الآلام غضب الآلهة . ان جوبتر اغتاظ من تجديف « بروميته » فارسل الالهة « باندور » الى الارض تحمل صندوقاً يحوي كل الامراض فلما فتحته انتشرت هذه الامراض بين البشر ولم يبق في الصندوق الا الامل . وكان

* من كتاب كيف تغلب الانسان على الالم (تحت الطبع) .

« فارونا » اله المياه عند الهنود يعاقب المذنب بالاستسقاء ، فكان من البديهي ان يصبح الكاهن المرجع الاعلى فيتعلق به الانسان ويرى فيه الطبيب المداوي كما يرجو بواسطته استمالة الالهة واسترضائها وعليه نزلت الآلهة « اي » بنفسها من السماء الى مدينة حور لتقتل الدودة التي كانت تنخر سن احد المرضى . وكان « الاسيداس » وهم اطباء الهند السماويون يهبطون من اعالي عليّين على مراكبهم الذهبية ليخلصوا ابناء الارض من الألم ، وكان « رودرا » اله البرق يحمل الترياق في يده اليسرى كما ان « روتن » اب الالهة السكنديناف كان يعلم كهنته كيف يعالجون الامم بالبرق والصاعقة واللهيب وطيران العصافير

•

وفي الاولمب كثير من الهة الرحمة كأبولون ، وهرمس ، وازقليس يستجيبون الصلاة عندما يتصاعد نحوهم دخان الضحايا المحروقة وعند الرومان لكل دار اله يصلون له . وفي الاساطير ان الموت اخذ يوماً يفتك بالبشر فتكاً ذريعاً فنزل احد الالهة ليتبين السبب فوجد المياه مسمومة فاستخلص منها السم في كأس وتجرعه ومات لينقذ البشر

وفي الديانة المسيحية ارسل الله كلمته لمغفرة الخطايا فكان الوسيط بين الارض والسماء وكانت مقدرته على شفاء الامراض عجيبة فلما صلب وصعد الى السماء انتقلت هذه القوة الى كنيسته حتى اصبح القديسون والكهنة والشهداء والنساك يتغلبون على الالم باللمس كما جاء في الاصحاح السادس عشر من مرقص « ويضعون ايديهم على المرضى فيتعافون » .

وفي عام ٩٠٠ صار الشفاء باللمس من امتيازات الملك فكان يتسلم هذه القوة مع التاج . وقديماً كان الامبراطور فسبازيان يشفي المرضى في هيكل سيرابيس على هذا الشكل اما في العصور الوسطى فقد اصبحت ملوك النصرانية تمثل الثالوث : الملك والقديس والطبيب : ولما كان هنري الرابع يطوف الطرق في باريس كانت الجماهير تتوافد اليه من كل ناحية فيترجل عن جواده ويمر بينها واضعاً ابهامه وسبابته على مكان الوجع راسماً اشارة الصليب اولا وثانياً قائلا للمريض الله يلمسك والله يشفيك .

ولكن الملوك والقديسين والشهداء غير مخلدين ، والمرضى في حالة ضعفهم وجهلهم لا يريدون ان يصدقوا ان المقدرة على الشفاء قد تزول بزوالهم فانتقل ايمانهم بهذه القوة منها الى بقايا هولاء الموتى العظام واصبح ذكر اسمهم او زيارة قبورهم او مس ملابسهم كافياً لتظهر فيهم اي في المرضى اعاجيبهم السابقة .

وقد بلغ من عبادتهم لهذه البقايا المقدسة ان فتح في اوروبا باب واسع لتجارة جديدة هي التجارة بالجماجم والرماد والانامل والايدي وغير ذلك . ولم يكتف الناس بها فاضافوا الخرافات الكثيرة الى الايمان فكانت النساء تذهب الى الغابات وتحز في الشجر ليمتص المهن، او تمس مكان الوجع بعصا وتذهب فتلقيها في مكان مظلم بعيد عن نور القمر والشمس . ومنهن من كن يغرقن الالم في الماء او يحرقنه بالنار او يعجنه بالخبز ويبعثنه لعابر طريق غريب تخلصاً منه .

على انه حين اتيح للفكر الطليق الخروج على التقاليد وتحطيم قيود الخرافات كان الرجوع الى العقل والمنطق افضل الذرائع للتخلص من الالم سواء في العصور القديمة او المتأخرة فكان الرواقيون اتباع زنون يظنون امكان الانتصار على الالم بانكاره او احتقاره . ولما استقبل بوزيدون وهو من اكبر اشياع هذا المذهب بومباي في جزيرة رودس اصابه الم شديد ناجم عن داء النقرس فتحمله بصبر وشجاعة ولم يقطع حديثه مع زائره الشهير . وكان سبينوزا وديكارت يجدان في تحليل الالم واسطة لتخفيفه . اما باسكال فكان كلما اشتدت وطأة الداء عليه زاد نشاطاً واغراقاً في درس قضاياه الفلسفية والحسابية لطرد الالم بقوة التفكير .

عصر الكيمياء

ثم دالت الايام وانقضى عهد الشياطين واختفت اعمال المشعوذين وآذنت شمس الآلهة بالزوال فخفت التقاليد الدينية واعمال التضحية في سبيل الشفاء . وصار الناس اذا لجأوا الى عادات اجدادهم وقد هجر الايمان قلوبهم تنكرت لهم الاشياء فلا يلقون سوى كلمات جوفاء وشارات غير مفهومة لا تاثير لها على الاطلاق . تلك كانت حالة الانسان عندما انتبه بعضهم الى خصائص بعض الاعشاب والزهور والاوراق والجذور في التخدير فوجدوا في النوم المجلوب عوناً على المرض .

ولكن استعمال هذه الحشائش لم ينتشر بسرعة لان بعضها كان ساماً فينام بها الانسان نوماً ابدياً . وكان على علماء الكيمياء ان يستخلصوا منها المواد النافعة نقية خالصة من كل شائبة . غير ان الكيمياء كانت يومئذ مشغولة بحجر الفلاسفة فانصرفت الجهود الى تحضير اكسير الحياة ، وهكذا مر الكثيرون من امام المكتشفات دون أن يولوها عناية واهتماماً حتى العصور الاخيرة .

نقولا فياض



★

لبنانُ يا ثاني السماء بحسنك البهج العجيب
حسنٌ طبيعيٌ كما شاء الآله بلا عيوب
من دون تكليفٍ وتصنيعٍ ولا لونٍ خضيب
كم في ثراكَ من الورود وفي سماكَ من الطيوب
لم تخلق الدنيا كفجركَ لا ولا مثل الغروب
سرحتُ عيني في رباكَ من الشمال الى الجنوب
فبدَت قراكَ مشتتاتٍ في السفوح بلا دروب
وأحبها مشياً على الاقدام في الوعر العصيب
أمشي وألهثُ، لي مُعين من مَعينكَ في الكثيب
وأعب في كفي المياه كأن في كفي كوبي!!
فأسير متّبع الغدير وعنج موجته اللعوب..
فأرى بنات قراك سائرة الى الماء القريب
يملأنَ من تلك العيون جرارهن مع المغيب
وخدودهن الوردُ دون الخضب واللون المكذوب
فاعجب فيهن السذاجة دون قيدين مريب
هوذا الربيع وبُسطه في وشيها الزاهي الخلوب
أينَ الشرازياتُ من أنوال فارس في النسيب
وبدا الصنوبر باسطاً أغصانه كيد الخطيب
يدلي الى الرواد بالانعام في الجبل الخصيب!
مرّ النسيم على الجسوم يعودها مثل الطبيب
لم يُبقِ منها مدنفاً أو شاحباً بعد الهبوب
وأرى الرعاة تسير بالقطعان في السفح الرهيب
بأناملٍ تشدو على قصبٍ بغص من النحيب
في كل لحنٍ مقلة تبكي وتزفر في الثقوب..
قطعٌ تضج لها السماء وتستثير جوى الطروب!
أنا ريشةٌ من طيركَ الصدّاح في الجوّ الرحيب
بل قطرةٌ من نهركَ الصخاب بالموج الغضوب
انا قطعةٌ من أرزكَ العلم المفدّى بالقلوب
أنا كل ما بي منك يا لبنان يا بلدَ الاديب
لبنان في عيني احب اليّ من عين الحبيب!!

سان باولو — البرازيل

رياض المعلوف

ثمالات

*

بقلم الياس خليل زخريا

... كان هذا الغدير ، في الضاحية ،
راكناً ركونه بين التلافيف والمزالق ،
واظاليف الاقدار ... كان مسقاة من
الماء الطحلب للطيور الغريبة ، والسوام ،
واخامص الليل المتمثر بالنقيق ، وحداب
الصخور . لم يكن منهلاً سكباً لاباريق
الزمرد ، وشفاه اللازورد المتفتح مع الريحان في رواق الصباح .

... كان مظنة ...

... كان محبكاً للاشباح والاساطير لا ملعباً للخواطر
والاطياف ، والدفة والنسمة ، فالنغمة ....

... كان مهداً ملتمعاً للعين لامفياة لخناجر الكروان ومناقير
البلابل الغادية .

*

ماء موحش غادرته مهابّ الشتاء في زاوية المسيل الموحشة

*

لم يختلج فيه مضاجع السماء
زرقة ، ونجماً .
لم تتشرع فيه القباب ريحاً
وسحباً .
وتظنه ، اذا ما تأملته ،
قطعاً من اللمع مجففة على قطع
من اللمح مستمسكة بنواتيء التراب
استمساكاً ، في مدارات الزوايا الخرساء المعشوشبة .

*

... ومرت «ذكاء» يوماً ، بالغدير ، وبسطت عينها فوق مائه ثم
رمت وجهه بالحصاة ، غضباً والماً ، ثم تراءت تنظر عمقه ، ثم اختلج
الغدير اختلاجه ، ثم صفق صخره ، ثم لاح قعره ، ثم جرى زورقاً ،
وشراعاً ، ومقذافاً ، ثم اصبح الغدير حباباً ثم عباباً ،

كأنه النيل يملأ «المعزة» هديراً ورُواء
كأنه « بردى » يملأ الهلال الخصيب نعمة وخيراً

والتفتت «ذكاء» الى قدميها القرمزيتين فاذا بهما غارقتان في مغاطس
اللجة ، الفائرة . ومدت يدها لتدفع الامواه المتدفقة فاذا باصابعها على
مقل الامواه ، ثملات مشبكة من مناجم المرمر ، وخصل مقطفة
من مشاجر النجوم

*

وابتسمت « ذكاء » ملياً ثم مسحت عرق
جبينها باجنحة الشوق ، فاذا بجبينها كرمة
خضراء ، منغية على شرفات الروابي في
ملاحج ضنين .
ثم ازمت ازومها فاذا بشفتيها ينابيع
سرمدية ، للاطياف ، للطيور السرمدية .

صار الغدير الراكن نهراً
صار الضياء اليابس موجة فبحراً ،

وارتعشت الصخرة ، الجاثة الجامسة وخرجت الموجة من
مكامن السكون الى رونق الانسياح والانهار بين الخضرة
والزهوة ، ومساري البحار القاصية .

*

... ولعل ذكاء نسيت ظلها في الغدير

... ومذ نسية حواء همسها في مطاف الجنة ، ومياه الكوثر
تتدفق حيرى تفتش عن حواء في
ابراج الازل المقدس .

.... ومنذ نادت العبرانية ،
ناطورة الكروم « انا سمراء وجميلة
يا بنات اورشليم ، انا كخيام قيدار ،
كشقيق سليمان ، لا تنظرن الي
الكوني سمراء لان الشمس قد
لوحتني » منذ تلك الاداهير واخت
القمر ، تلفح بافواهها ارجوان الخدود ، وزمرد التفاح ، وسوسن
العناقيد ، وشفاه السمر العطاش في اواخر الليل البارد .

... منذ ذلك البدء ، وصبايا الحي عندنا ، في تل اللبان ،
يفتحن مصراعي النافذة الشمالية ، يطلبن على فراشهن من تحبه
نفوسهن .
لتدخل تمتمات الغدوة ، لتتسرب هبات البنفسج ، لتمتد انامل
الصباح في صياح الديكة ، وقبلات العصافير .

*

قالت الصغرى لاختها الكبرى ،

.... مالنا ولهذا الغدير الهادي ، ? ...

... ما لنا ، ولهذا الحوض الراقد في الواحة الشرقية
من مدائن الاموات .

عرفته ، يا اختي ، يحلم بالثريا في سراب الظهيرة .

عرفته يرود رودانا عجيباً على شطآن الحرف الواحد .

... عميق ولكن الطحلب سد ممرات عمقه ..

... ملاح ولكن الاعاصير حطمت صواري اشرعته ...

... مزدهي ولكن الليل والشك اثقلا مجن كبريائه ...

*

يحيا في عين الارض كما تحيا الارض في عين القدر

... عفوك ، اختي ...

كما يحيا القدر في رموش عينيه

في حبات الجديته

*

لا يتلفت التفاته الا الى ذاته

لا يهمس همسه الا في مسالك اذنه

لا يؤمن ايمانه الا بنفسه

وهو اذا تحدث ، تحدث الى اوتار فمه

الى شفته

الى صدى صوته

الى حفيف قلبه

الى مرآى وجهه ، الى ارنبة انفه

عرفته ، يا اختي ، سخياً في المضنّة

ضنيناً في السخاء

يحتسي كأسه ، وكأن كأسه هي التي تحتسيه .

... ويوم ...

أخذ رأسي بيديه ، كاتبها ، وقبّل غدائري ، فجبيني ، فعيني ، ومسح صدري ، باوراق الورد ، وجنينة البنفسج لمت شفتي ، حياء عن عينه ، ولكني نسيت قلبي على اهدابه الهاربة .

انظري

«من هي هذه الطالعة من البرية المستندة الى حبيبها»

وتلفتت الكبرى فلم ترَ الا الغدير الراكن في سفح جبل الاطياب .

... ولم لا تضحك ...

ايه بنيتي ، يا اختي الصغيرة .....

اعطيني رأسك مرة ثانية .....

ضمي صدرك بصدري

ان جسدك يقطر بخوراً ، ونوراً

*

لا ، لم تضيعي قلبك على اهدابه

لا .. اني ارى هنا ، هنا ، على هاتين الشفتين الحائرتين ، قلبه ، المختمر في دنان يثرب ومعاصر الطائف القديمة .

... وسمعت العصافير المبكرة زقزقة الشفاه ...

... وضربت مناقيرها في خد الصبح ثم رفت ...

... في سقيفة الدار ثم حطت ...

... كالعسس على خشب النافذة ...

*

حدثيني عنه

خذي ، فمي ، اختي

وتلاشت في اعماق الغرفة ، الحالمة ، اشباح الغدير

وعادت البلابل الى مضارب الشمس تنثر من الشرق ، جوانحها التعبة .

قيل انه كان غديراً راكناً ، ولكن ذكاء فجرته باطراف ملامسها ، ينبوعاً غزيراً في تلال لبنان

*

سيملأ الجنة ، غناء

ايتها الهائمة ، على النيل في مطارف دجلة ،

قبلي وجهك ، في اهداب المرآة

الياس خليل زخريا



الذئب في عدسة الشاعر

ترى طرفيه يعسلان كلاهما ، كما اهتز عود الشيحة، المتتابع(1)

ينام باحدى مقلتيه ، ويتقي بأخرى المنايا ، فهو يقظان هاجع

طوى نفسه طي الحرير ، كأنه حوى حية في ربوة ، فهو قابع

فلما اصابت متنه الشمس، حكه بأعصل ، في أنيابه السم ناقع

اذا قام ، القى بوعه قدر طوله ، ومدد منه صلبه ، وهو تابع

وفكك لحييه ، فلما تعاديا صأى ، ثم أقعى ، والبلاد بلاقع

وهم بأمر ، ثم أزمع غيره . وان ضاق رزق مرة ، فهو واسع

وعارض أطراف الصبا ، فكأنه رجاع غدير ، هزه الريح رائع

اذا ما غدا يوماً ، رأيت غيابة من الطير ، ينظرن الذي هو صانع

حميد بن ثور

الذئب في احساس الشاعر

1

وماء كلون الغسل، قد عاد آجناً . قليل به الاصوات ، في بلد محل

وجدت عليه الذئب يعوي ، كأنه خليع، خلا من كل مال ومن اهل

(1) ادرج الرواة في قصيدة حميد بن ثور بعضاً من قصيدة ابن عنقاء الفزاري والعكس .

الذئب

أوسع الادب العربي من جوانبه كثيراً، لاشياء الطبيعة والحياة . وعبر عن ظلالها والوانها في تقدير موزون ، وابرزها كافتها في تلاوين تشيع بمناة الفتون . . ولا سيما في القسم الذي كان في غايته ، تسجيلاً للاهتزازة الشعرية الحية ، واستمتاعاً بها دون ما وراء ، اي قبل ان يتصنع فيه ، وتزور خاطرة الشعر في مذاهبه واغراضه . .

فهذا حميد بن ثور ، يطالعنا بصورة ذئب في كيان اللحم والدم ، اي كما هو في حس الحياة وواقعها، جاءت صادقة بما وفر لها من خطوط تمثي الحياة فيها .

فلذئبه عيناه « تعسلان » ويشتد اهتزازهما في تتابع وتدارك ، كما يهتز عود الورد البري ذي الزهر الاصفر تحت تموج وتميد الريح .

واذا هو اغفى ، فانه لا ينام كل النوم كما ليس يصحو كل الصحو ، بل يسبل من اجفان واحدة ليتقي بالاخرى واثب النكبات . فسبيله ابداً يقظة في حد الى هجعة في حد ، وتراه في يقظته الهاجعة او هجعته اليقظة ، وقد انطوى على نفسه طي الحرير « قابعاً » مدخلاً رأسه في انحاء جسده ، حتى لتحسبه كتلة مجتمعة من سواد حية ضاربة الى الخضرة ، استكنت في ربوة منقطعة .

وحين اصابت الشمس «متنه» مستشرف ظهره، هب مائلا عليه يحكه «باعصل» فكه المعوج، الذي نقع في انيابه السم .

ويهم بالقيام ، « فيلقي بوعه » يتمطى قدر مد اليدين في مدى طوله ، فيتمدد منه صلبه ويتبعه بكل جسده . . ويكشر عن فكيه في انفراج عريض، فيتماديان في «صأي» كصوت التثاؤب الجاهد . ثم « يقعي » يسند في جلسته صدره بذراعيه ، مستشرفاً البلاقع الطائفة حوله .

ويخف واثباً في وجه ليحول عنه ، كأنه هم بأمر فأزمع غيره . . وصيده – الذي هو خطة رزقه – وان ضاق به حيناً ، فهو ممهود ميسر ابداً . . وهو في مدى سيره يعوي معارضاً اصداء الصبا ، فيمر عواؤه وكأنه اصداء مسايل الغدران التي هزتها ريح خفوق .

وكيفما ذهب عادياً ، تتكنف جوه اسراب الطير، يرتقبن مطارح فتكتاته الحمراء، السعيدة في معنى حاجتهن .

في هذه القطعة ، الذئب ككائن استوت فيه الحياة

فقلت له : يا ذئب هل لك في فتى، يواسي بلا من عليك ولا بخل

فقال : هداك الله للرشد ، انما دعوت ، لما لم يأته سبع قبلي

فلست بآتيه ، ولا استطيعه ، ولاك ، اسقني ان كان ماؤك ذا فضل

فقلت : عليك الحوض ، اني تركته وفي صفوه ، فضل القلوص من السجل

فطرب ، يستعوي ذئاباً كثيرة . . . وعدت ، وكل من هواه على شغل

النجاشي

٢

ولقد ألم بنا ، لنقريه بادي الشقاء ، محارف الكسب

يدعو الغنى ان نال عُلقته من مطعم ، غباً الى غب

وطوى ثميلته ، والحقها بالصلب بعد لدونة الصلب

لو كنت ذا لب تعيش بـه ، لفعلت فعل المرء ذي اللب

وجمعت صالح ما احترفت ، وما جمعت من نهب الى نهب . . .

لما رأى أن ليس نافعه جد ، تهاون صادق الارب

والح الحاحاً لحاجته ، بادي التكلح ، مشتكي السغب

فرأيت حقاً ان اضيفه اذ أم سلمي ، واتقى حربي

فوقفت معتاماً ، أزاولها بمهند ذي رونق عضب

فعرضته في ساق أسمنها ، فاجتاز بين الحاذ والكعب

فتركتها ، لعياله جزراً عمداً ، وعلق رحلها صحبي .

الفزاري

وشاعت عليه الحركة من اقطاره، واتصل لديه حس الضرورة بحس الحاجة . على انه جاء في القطعة، فوق كونه ذئباً طبيعياً، ذئباً نضرت قسماته هبة الفن المعطية المغدقة . . .

وهذا الذئب الذي نراه على طبيعته في قطعة حميد بن ثور، كما لو انه وقع بكل ظلاله في بؤرة عدسة لاقطة، نراه عند النجاشي والفزاري، خابطاً وخدينا وطالب عرف . فقد اصطنعه الشاعر وافرغ عليه احاسيسه ، فجاء ذئباً شعرياً له طرافة الابتداع ، حتى ليتحدث ويسائل ، ويتمنا في هذا وهذا .

في براح من الارض الخلاء الممحلة ، نجد النجاشي عند مستنقع لمائه لون « الغسل » ماء الخطمي ، على انه آجن فاسد وهو في منقطع موحش لا تكاد تسمع في جوه صوتاً .

وهناك وجد ذئبه يعوي في الم حاد وشدة لاغبة ضاجة، كأنه « خليع » طريد الاهل والعشيرة . والخليع انسان اسقطه المجتمع من حسابه اي جرده من انسانيته ، فهو ناقم متلظ لا يفتأ يرسل الزفرة تلهب الارض الفضاء . . فمال عليه الشاعر يأخذ اسباب نفسه الجريحة باسباب نفسه الآسية ، لعله بالغ به اربه .

فدعاه الى طعامه دعوة صنو لصنو، في غير انحدار عنه بالبخل وفي غير استعلاء عليه بالامتنان . بيد ان الذئب تجافى الدعوة، واحال تجافيه على الطبع، فهي دعوة لم يأتها سبع قبله ، على انه لو ارادها لما استطاعها و « لاك » ولكن اسقني فضل مائك .

فبادره يشير نحو الحوض الذي تركه ، وفي « صفوه » جوفه ، ما قد فضل عن « قلوصه » ناقته ، من بقية في « السجل » الدلو .

احس الذئب بنشوة الابتراد ونقع الغلة الصادية الظامئة، فطرب يهتف بالظامئين، مستعوياً طالباً لهم بالعواء ، وهو لغة وهو منطق يجمع الفاً الى الف .

«وعدت» وعاد ، تجمعنا وحدة شعور كلية بالحياة، وان انتزعت بنا الالوان المختلفة من نزوات الاهواء، منازعها .

وفي القطعة احساس بعمق المعنى الحي المشترك في «الشاعر والقلوص والذئب » ، واحساس بان تنوع الاحياء في الخصائص الفة واعتياد « تأمل جيداً : لم يأته سبع قبلي » .

وكذلك نجد ذئب الفزاري، فقد نزل عليه طالباً قراه، وهو بادي الشقاء لا ينال الكسب الا بالاحتراف والسعي : ويزعم لنفسه الغنى ان نال « علقته » نصيباً من حين الى حين ويطوي قانعاً «ثميلته» بقية ما ثبت في امعائه ، ملحقاً اياها بصلبه بعد لدونته ، ولو كان ذا لب صنو الانسان لادخر ما احترفه . . على ان جد الحديث لم يكن نافعه ، فالح مستجدياً وهو ظاهر «التكلح» ارتسام اسارير الوجه بالتكشير والعبوس، مشتك «السغب» الجوع . فرأى ضيافته حقاً واجباً، فاهوى « معتاماً » قاصداً، «ازاول» الابس ناقتي، بمهند عضب ، واطلقته وجوعه في انتهاجها « محتاذا » متنقلاً بين « الحاذ » حد الفخذ والكعب ، ثم امضينا وقد تسابق صحبي الى حمل اثقالي ورحلي .

« ابو عبادة »



قلب الفيلسوف

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

مدرس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول



ذاع بين الناس ان العاطفة والفكر لا يلتقيان، فعلى الفيلسوف ان يجعل بين قلبه وعقله برزخاً فلا يبغيان ، استغفر الله بل بينهما في زعمهم خصومة ولا سبيل الى تنمية الواحد الا على حساب الآخر. ويسوقون للتدليل على هذا الرأي اقوالاً ترتد كلها الى اشتراط النزاهة والوضوح في الفكر ، والعاطفة بنأى عن كليهما : فهي ذاتية تصدر عن الذات الخاصة وتلتبس بأحوالها فلا تستطيع بالتالي ان تخلق ذلك الانفصال الضروري الذي يسمح وحده بادراك الموضوع عارياً عن كل ما يخالط الذات من احوال لا تنتسب الى الموضوع ، وهي غامضة غموض مراكزها والاحوال التي تتم فيها والدوافع التي تعمل على ايجادها وانمائها وابلاغها تمام نضجها .

وهذا الرأي ينحدر خصوصاً من اصلاب يونانية ، لان المثل الاعلى عند الفيلسوف اليوناني في تفكيره ان يكون تأملا خالصاً نزيهاً لا دخل للذات في تحديد كيفياته . واذا كان البعض من فلاسفة يونان قد اشادوا بالحب من الناحية الفلسفية ، بل ومن ناحية نظرية المعرفة بخاصة ، كما فعل افلاطون ، ثم الافلاطونية المحدثة فقد نظروا اليه على نحو يسلبه طابعه العاطفي الحقيقي — فعنده ان الحب مجرد دافع الى التعلق بالاشياء — لا من اجل النفوذ فيها والاتحاد واياها في تجربة روحية واحدة ، ولكن من اجل توجيه الفكر اليها لاول مرة ، حتى اذا ما تنبه لها فعليه ان يبادر بالارتفاع فوق هذه الدرجة الى درجة اعلى ، هي المعرفة النزيهة والفكر المجرد الخالص من كل أثر عاطفي . ولذا كان يرى ان الحب مجرد عامل مساعد مرتب لخدمة المعرفة ، وما هو الا نزوع يقود من معرفة ناقصة الى اخرى اكثر كمالاً ، فان الحب ابن للثراء والاملاق ، ووليد الجهل والمعرفة : فالذين يحيطون بكل شيء علماً (كالآلهة) والذين يجهلون كل شيء ، كلا الفريقين لا تنبثق فيه عاطفة الحب ، انما هو وسط بين الجهل والمعرفة لهذا فهو لا ينتسب الى هؤلاء ولا الى اولئك ، والثراء والاملاق يقصد بهما المعرفة كذلك لا المعنى الوجودي ، اي ثراء الذات .

واذا كانت المسيحية قد جاءت فرفعت العاطفة الى درجة عالية وجعلت الحب من بين العواطف الرابطة الكبرى والغاية العظمى من الاخلاقية لديها ، فانها لم تستطع ان تأتي بمذهب فلسفي في الحب يستطيع ان يطرد المذهب اليوناني ويسود بديلًا عنه فقد جاء اوغسطين وجعل الحب سيد ملكات المعرفة والنفس التي جعلها ثلاثاً هي الارادة والامتثال والحب ، والاخير اولها : فهو الذي يستثمر المعرفة ، وبالمعرفة يحرك الارادة ، وعنده ان الله انما عين ماهيته هي الحب ، وفعله الاكبر وهو الخلق انما يتم بالحب ، فبعد ان كنا نرى الاله عند اليوناني بمعزل عن الحب ، وفي تعقل خالص لعقله ولذاته ، وانما يأتي العشق من جانب المخلوقات ، نرى الحب نفسه عين الماهية عند الله في نظر اوغسطين . بل نراه يذهب الى ابعد من هذا فيرد الملكتين الاخريين اليه : فما الارادة الا رغبة

وتعشق وتشوق واهتمام ، وكل هذه احوال عـاطفية تصدر عن طبيعة الحب ، وما الامتثال الا اختيار وتعلق يتراوحان بين التشوق والنزوع للاتصال بالموضوع من اجل الاتحاد به ثم ادراكه . أجل ، كان اوغسطين بسبيل ان يقيم مذهباً يخالف المذهب اليوناني في الحب ، على اساس ان الحب هو الاصل في المعرفة كما هو الاصل في كل الخلق وفي ماهية الله نفسه ، ولقد ساعده على هذا خصوصاً ما اتت به المسيحية من نزعة ذاتية فيها توكيد للشخصية والفردية ، مما يتلاءم مع الحب بوصفه عاطفة ذاتية لا موضوعية . بيد انه لم يضع مذهباً مفصلا ولم يستطع ان يؤثر من بعد الا في تيار واحد من التيارات الروحية في العصر الوسيط ، ونعني به التيار الصوفي ، وعلى رأسه خصوصاً القديس برنار دي كليرفو ، الذي كان مع هذا خصيماً — وفي باب الحب نفسه !— لاكبر فيلسوف عاشق عُرف في التاريخ ، اعني ابيلارد ، كما سنعرف بعد حين . وما كان لنظرة هؤلاء ان تسود وقد جاء التيار اليوناني كالسيل الجارف فاكتسح الفكر الوسيط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما تلاهما فعاد الفكر الغربي يئن تحت نير النظرة اليونانية في الحب ، حتى رأيناه عند القديس توما شبحاً من ملكة المعرفة لا يكاد يكون له قوام !

وهذه الظاهرة عينها نراها في العالم الاسلامي المعاصر له . فأهل النظر والفلسفة كان منهم فريق يحقر الحب ويذمت العشق بالخسة ، والعشاق بانهم « يجاوزون حد البهائم في عدم ملكة النفس وزم الهوى وفي الانقياد للشهوات » (محمد زكريا الرازي : « رسـائل فلسفية » ، ص ٣٩ ، نشر كروس ، القاهرة سنة ١٩٣٩) ، وهم يطيعون الهوى ويستعبدون انفسهم للشهوات ، وفريـق آخر لا يذهب الى هذا الحد المبالغ فيه ، انمـا يرتد الى التقاليد اليونانية الارسطية الافلاطونية معاً ، ويمثله خصوصاً ابن سينا ، فقد كرس له في كتابه « الاشارات » (ج ٢ ص ٩٨ — ٩٩ ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ — سنة ١٩٠٧ م) « اشارة » بديعة قال فيهـا :

« أجل مبتهج بشيء هو الاول بذاته ، لانه اشد الاشياء ادراكاً لاشد الاشياء كمالا ، الذي هو بريء عن طبيعة الامكان والعدم ، وهما منبعا الشر — ولا شاغل له عنه (اي عن اشد الاشياء كمالا) . والعشق الحقيقي هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما . والشوق هو الحركة الى تتميم هذا الابتهاج اذا كانت الصورة متمثلة من وجه كما يتمثل في الخيال ، غير متمثلة من وجه كما يتفق ان لا تكون متمثلة في الحس حتى يكون تمام التمثل الحسي للامر الحسي . فكل مشتاق فانه قد نال شيئاً ما وفاته شيء ما ، واما العشق فمعنى آخر . والاول عاشق لذاته معشوق لذاته ، عُشق من غيره او لم يُعشق ، ولكنه ليس لا يعشق من غيره ، بل هو معشوق لذاته من ذاته ومن اشياء كثيرة غيره . ويتلوه (اي الاول بذاته ، اي الله) المبتهجون به وبذواتهم من حيث هم يبتهجون به ، وهم الجواهر العقلية القدسية . فليس ينسب الى الاول الحق ولا الى التالين من خلص اوليائه القدسيين شوق . وبعد المرتبتين مرتبة العشـاق المشتاقين : فهم من حيث هم عشاق ، قد نالوا نيلا مـا ، فهم ملتذون ، ومن حيث هم مشتاقون ، فقد يكون لاصناف منهم اذى ما ، ولما كان الاذى من قبله (اي المعشوق ، وهو هنا الله) كان اذى لذيذاً . وقد تحاكي مثل هذا الاذى ، من الامور الحسية محاكاة بعيدة جداً حال اذى الحكة والدغدغة ، فلربما خيل ذلك شيئاً بعيداً منه . ومثل هذا الشوق مبدأ حركة ما . فان كانت تلك الحركة مخلصة الى النيـل ، بطل الطلب وحقت البهجة . والنفوس البشرية اذا نالت الغبطة العليا في حياتها الدنيا ، كان أجل احوالها ان تكون عاشقة مشتاقة لا تخلص عن علاقة الشوق اللهم الا في الحياة الاخرى » .

وقد اطلنا في اقتباس هذا النص لما له من اهمية خاصة بوصفه معقد الصلة بين التيار الفلسفي النظري الذي يمثله ابن زكريا الرازي وبين التيار الصوفي : فهو مهجن بكليها ، لان ابن سينا تأثر بهما معاً ، بل كان الجانب الصوفي الاشراقي المتأثر خصوصاً بالافلاطونية المحدثة هو الاغلب عنده في هـذا الفصل الذي ينتسب الى الطور المتأخر الذي تغلب فيه الجانب الاشراقي الافلاطوني المحدث على النزعة الارسطية التي نجدها من قبل في « النجاة » و « الشفاء » . والمهم خصوصاً في هذا النص نسبة العشق الى الله ، ففي هذا خروج واضح على النزعة المشائية . فهو يقول بان الله « عـاشق لذاته معشوق لذاته » سواء أعشق من غيره ام لم يُعشق ، ثم يستدرك فيقول ان هذا القول انما اطلق لبيان ان مـاهية الله هي العشق او على الاقل ان صفة العشق من صفات الله الجوهرية ، ما دامت لا تتوقف على اي عشق آخر من جانب الغير ، ومع هذا فهو معشوق للغير . بيد انه سرعان ما يتذكر ان العشق يتضمن حالة التردد بين العوَز والثراء ، والله ثري فوق كل ثراء لا يعوزه شيء ، فكيف نصفه اذاً بهذا النعت ، لهذا كان على ابن سينا ان ينفي عن العشق ما يدل على الاملاق والعَوز ، وهو الشوق ، فراح ينزه الله عن الشوق لانه لا يمكن ان يفوته شيء او يعوزه . ذلك ان العشق

الحقيقي هو الابتهاج بتصور حضور ذات ما هي المعشوقة ، وذات الله هي معشوقة ، وهي حاضرة له باستمرار ، واذاً فلا معنى بعد للشوق ، لان الشوق هو الحركة الى تتميم هـذا الابتهاج ، وهذا لا يحدث الا اذا كان المعشوق حاضراً من وجه ، غائباً من وجه ، اعني الا تكون الذات المعشوقة حاضرة بعينها ، ولكن بصورتها فتنزع النفس الى حضورها بعينها . ومن هذا نرى اذاً ان الحب الالهي ، اعني الخاص بالله من ذاته لذاته ، حب سكوني لانه خلا من الشوق ، والشوق هو عنصر الحركة في العشق ، وهذا طابع ضروري ، لان الحركة تتنافى مع ذات الالـه ، اذ هي تغير ، ويستحيل على الله التغير ، على الاقـل في نظر ارسطو . ولهذا يحق المرء ان يتساءل : وهل يعد هذا عشقاً بالمعنى الحقيقي ، الواقع انه لا عشق الا مع شوق ، ولا شوق الا مع حركة ، ولا حركة الا ومعها تغير : فاما ان نتصور الذات الالهية على انها قابلة للتغير . وهنا يمكن ان يفهم اضافة العشق اليه ، واما ان نتصورهـا على انها لا تقبل غير الثبات ، وفي هذه الحالة يستحيل اضـافة العشق الحقيقي اليها . ولا مجال للقول بقابلية ذات الله للتغير الا في مذهب يقو بوحدة الوجود ، لهذا رأينا نظرية العشق الصحيحة بالنسبة الى الذات الالهية في المذاهب القائلة بوحدة الوجود ، وبخـاصة عند الافلاطونية المحدثة والصوفية المسيحية وعند اكهرت من بينهـا على وجه التخصيص . وهذا هو الذي يفسر الـ[illegible] امكان القول بالعشق عند الذات الالهية في مذاهب الصوفية ، وذلك انهم يقولون بوحدة الوجود . ومن هذا كله يتضح ان موقف ابن سينا هنا — كما في كل موضع تقريباً — كان متردداً بين التيارات المتعارضة ، مما جعل مذهبه غير مستقر على قاعدة معلومة ثابتة .

ولهذا ايضاً كان المذهب المنطقي الوحيد في العشق هو مذهب الصوفية ، وهو اوضح من ان نفصل فيه القول ها هنا . ومن هنا نستطيع ان نقول في ثقة ان جميع الذين جعلوا المعرفـة تنبع من الحب او ربطوا بينهما ربطاً وثيقاً بحيث جعلوا الواحد متوقفاً على الآخر على ان للحب السيادة في كلتا الحالتين ، هم ممن نزعوا نزعة صوفية . وهذا يفسر لنا قول جيته المشهور : « لا يأخذ المرء في معرفة شيء الا اذا كان يحبه ، والمعرفة ستكون من الاحـاطة والعمق بقدر ما يكون الحب ، بل والانفعال نفسه ، اعظم قوة واحفل حيـاة » — وهو قول طالمـا اكده وعبر عنه في صور متعددة في مختلف مؤلفاته ، حتى صارت هذه الصيغة اكمل تعبير عن توكيد الصلة بين المعرفة والحب على اساس ان الاولى تنبع من الثاني ، ويناظرها قول ليونردو دافنشي المعروف : « كل وجدان كبير هو ابن لمعرفة كبيرة » : فكلاهما يهدف الى « تفنيد الحكم البورجوازي — الحديث في ظهوره — والذي يقول ان الحب لا يجعل المرء بصيراً ، بل أعمى ، الى حد ان المرء لا يستطيع بلوغ المعرفة الحقيقية بالعالم الا بفضل انتقاء كل ثقة بالافعال الانفعـالية وتقويم الموضوع بها بواسطتها ، مع ان هذا الحكم ناشيء عن الجهـل ، الوضعي في جوهره ، بالوحدة الوثيقة التي تربط في التجربة بين قيمة الموضوع (المدرك) وبين الافعال الانفعالية » — كما يقول ماكس شيلر في بحثه القيم بعنوان : « الحب والمعرفة » (ترجم الى الفرنسية مع مقالتين اخريين ، تحت عنوان « معنى الالم » ، باريس سنة ١٩٣٦ ، ص ١٣٩ — ص ١٤٠) . بيد ان ليوناردو يقول ان فعل المعرفة هو الذي يولد فعل العشق ، وعلى العكس يقول جيته ان حركة الحب هي التي تجدد المعرفة ، وهو قول اصدق من الاول ، ما دام مؤدى كليهما هو الربط العضوي الوثيق بين الواحد والآخر ، اللهم الا اذا فهم قول ليوناردو على اساس آخر مباين ، ولكننا لا نرجع هذا الفهم ، نظراً لاحوال ليوناردو الروحية . ومن بعده جاء بسكال بقول جمع بين صورة سلفه ليوناردو وخلفه جيته فقال : « العشق والعقل هما شيء واحد » ، ويقصد بهذا ، كما يقول شيلر (الموضع نفسه ص ١٤٠) ان عملية الوجدان الغرامي هي التي تظهر الموضوعات التي تمثلها الحواس ثم يقدرها العقل من بعد ، وتلـك اقوى صيغة واجرأ تعبير عن الصلة بين الحب والمعرفة .

غير انه لا هؤلاء ولا بقية الصوفية استطاعوا ان يوضحوا العلة في هذا التوحيد او — في القليل — ، الارتبـاط الوثيق بين الحب والمعرفة . ولكننا نستطيع بمذهبنا الوجودي ان نجد التفسير . فنحن نقول ان العاطفة هي الاقدر على الادراك ، لانها تصدر عن الذات اكثر مما يصدر العقل ، والذات هي الحقيقـة الوحيدة في الوجود الحقيقي ، في مقابل الوجود الفزيائي ، فلما كان الحب من ابرز مقولات العاطفة فانه من اقدر العواطف على المعرفة ، ان لم يكن اقدرها جميعاً . وبيان ذلك ان الحب فيه — اكثر من غيره — احالة الى الموضوع ، ولهذا كان به دائماً هذا النزوع الى الادراك ، لان الادراك معناه اتجاه الذات نحو الموضوع .

هذا هو التفسير النظري . وفي الفصول التالية سنأتي بالتفسير الوجودي من شواهد التاريخ ، بأن نعرض مصـارع قلوب بعض الفلاسفة بسهام كيوبيد .

القاهرة عبد الرحمن بدوي

الربيع

●

زافَ الربيعُ ، فتُوّةً ، وتثاءبت   في مقلتيـه نظرةٌ خضراء .
وازّينَ الوادي ، وأومـأت الربى ،   والتفّ ، في هُدب الضحى ، اغراء .
وسرى الدجى ، نديان ، مشبوب المنى ،   سكران ، في أعطافه ، الصهبـاء
وعـلى النسيم ، عذوبةٌ ، ونعومةٌ   انثى ، وفي همسـاته ، اغفـاء
المـاء ، مستنّ الضفـائر ، داعبٌ   يشدو . ترى ماذا يقول المـاء ؟
والطير ، منقـاد يزق ، وجانحٌ   ثمـلٌ ، كأن رفيفه ، اغراء
وعلى الوِراد ، وفي الغصون ، صبابةٌ ،   وعـلى الظلال النائمـات ، رُواء
الترابُ ، أيقظه اللقـاح ، وهزه   صوتُ الحيـاة ، فللتراب غنـاء
والميتُ ، محتاجٌ بهم ، ولو صحت ،   لمشت ، على عضلاتها ، (الأشياء)
الموت حي ، في الربيع ، ترابـه ،   ونسيمه ، وصباحهُ : احياء .
والافق أخضرُ ، والسماء ، كأنها   — في ضفتيه ، — غلالةٌ زرقـاء
والارضُ برعمَ صدرُهـا ، وتفتحت ، وتسآءلت ، خلف العروق ، دمـاء
نيسانُ ! وانعقدت عـلى اهدابهـا   ولسانهـا ، احلامهـا العذراء .
نيسان ! وانتفضت « كأن دماءهـا   نارٌ ، كأنّ حنينهـا ، استجداء
نيسان . . . وانشقّ الزمانُ ، وجاءها   نيسانهـا : أبيكِ ، يا سمراء ؟
ايه ! وأطرَقت اللعوبُ ، يلفهـا ،   شوقٌ ويعقدُ خطوها ، استحيـاء
ايه ! وراح يزُقها ، فتهـالكت ،   وكأنما خدرُ الهوى ، اعيـاء
ايه . . وماتت ، آه ، في شفتيها ،   — يا آه ، انت قصيدةٌ ، بيضاء ،

*

عُرسُ الطبيعة ، يا شبابُ ، فطر ، بنا   في عيده ، ان الربيع نـداء .

حمص   **وصفي قرنفلي**



ربات الوحي عند اليونان

*

بقلم الدكتور محمد مندور

في ارض بيوسيا ببلاد اليونان والى ساق جبل الهليكون الشهير كان الشاعر العذب النغمات هزيودس يرعى حملانه يوماً وقد آذنت الشمس بالغروب فعرج نحو نبع من تلك الينابيع الجميلة التي تتدفق بين الصخور بلوراً نقياً ثم تجتمع زرقة صافية واذا به يلمح عن بعد تسع حوريات لم تقع عين على اجمل منهن يرقصن حول النبع بأرجل خفيفة ما تكاد تمس الارض وفي رقة حركاتهن ما يحكي خرير المياه فخف اليهن باسم القلب ولكنه لم يكد يدنو حتى غشى الفتيات غبش حجبهن دونه غبش رقيق لو رأيته لحسبته زبداً منثورا . وهال الرجل جمال ما رأى فرهفت منه الحواس واذا بصوت عذب يناديه « ايها الرعاة السادرون بالحقول - يا خزي الارض - هل انتم الا بطون . اننا نستطيع ان نقص اكاذيب اشبه ما تكون بالواقع كما نستطيع ان اردنا ان نعلن الحقائق » ثم دفعت اليه احداهن غصناً من الزيتون لم يكد يتناوله حتى جرى لسانه بما يشبه ندى الفجر رقة او شهي العسل حلاوة وطارت الحوريات في سحابة عميقة يبعثن من خلالها نغمات صافيات كالضياء .

هذه الفتيات الجميلات ، هن ربات الوحي اللاتي يسكن قمة الهليكون ويعبدن الى ساقه في معبد جميل لا تزال بعض احجاره تحدث حتى اليوم عما كان له من قداسة فاي غرابة ان يراهن الشعراء يرقصن الى ضفاف الغدران او يؤثرن الوحدة فيحتجبن عن الابصار وهل اصدق من جمال الطبيعة وحياً وهل اخصب للالهام من الوحدة؟ خفت فتياتنا في ظلام الليل « واشد ما يحلو لهن السرى » الى قمة الاولمب ليطربن محضر الالهة بترجيع أصواتهن العذاب يرسلنها موقعة على نبرات قيثارة ابولون اله الفنون وقائد جوقتهن .

ولكن ترى من اولئك الفتيات ولمن ولدن وبأي ارض نشأن ؟

قال بنداروس اكبر شعراء اليونان الغنائيين ان الالهة طلبوا الى زيس بعد انتصاره على العمالقة ان يخلق ربات يشدن بذلك الانتصار ويتغنين بجمال ما يسود العالم من نظام جديد ووقع طلبهم من كبير الآلهة موقع الرضى فبحث عن أم تستطيع ان تلد مثل هؤلاء الربات فلم يجد غير Mnemosyne اي « الذكرى » ومن اقدر منها على حكاية صدى الايام ومن اعذب منها غناء وبفمها الهادى. تستحيل الاحزان افراحاً وهناك بأعلى الهليكون حيث بياض الثلوج اتخذت الذكرى لبناتها مهدا - ولدتهن سلوى عن الاحزان وهدنة للهموم - ولدتهن صافيات النفوس لا تعرف قلوبهن غير الغناء - طليقات الارواح لا تحبس غناءهن آلام - « طوبى لمن تحبه تلك الربات » اذن لجرت من بين شفتيه اعذب النغمات - وما ان جلل الاسى قلباً حديث عهد بالاحزان فاخذت روحه تذوي الماً ثم اتاه ربيب لتلك الربات يتغنى ببطولة الابطال السابقين او بمجد الآلهة الخالدين بأعلى الاولمب الا نسي احزانه وسكنت آلامه حتى لكأن ربات الذكرى تهب النسيان » . تهبه السامعين . واما الشعراء فاليهن يتجه رجاؤهم

في مستهل القصيد – « غننا – يا ربة الذكرى – ما كان من غضب اشيل ... » ويستمر هوميروس في ملحمته الخالدة الالياذة وكلما اختلطت به السبل او تعدد الرجـال استلهم الربة الذكرى – « ذكريني باول من انبرى لنزال اجممنون من ابطال » خبريني باسماء كل من اشترك في تلك الحرب الضروس » والشاعر يكتب ما تملي

وفي الحق ان تلك الربات قد اجتمعن لدى هوميروس ربـة واحدة – هي ربة الذكرى . ولا غرابة في ذلك فالشعر القصصي من امثال الالياذة والاودسا شعر يحيى فيه الحاضر كما يحيى فيه الشاعر امام الماضي البعيد وصدى السنين الخوالي وهل اقدر على حكاية ما كان من خبر الابطال الذين خلد بين الرجال ذكرهم من تلك الربة التي اجتمعت فيها كل الربات « انت ربات – استقرت بكل شيء وعلمت حقيقة كل شيء . اما نحن فلا علم لنا بحقائق الاشياء وانما نعلم ما يروى عنها » . بذا يخاطبهن هوميروس يوم كانت الملاحم مادة الشعر وهم الشعراء .

وسار الزمن سيرته فطغى الحاضر على الماضي ينازع الرجال قلوبهم ومازجت مصائر الاحياء ذكر من غبر من ابطـال كما اختلطت نغمات الطبيعة الماثلة بأصداء الماضي المنصرم فنشأ الى جانب القصص شعر غنائي يتحدث عن الانسان وعن الطبيعة : شعر تصحب الموسيقى نغماته وترقص الاجسام لنشوته ، وشعر تمثيلي منه المحزن ومنه المضحك بل وتاريخ وخطابة وفلك فذهبت كل واحدة من الربات التسع بأحد تلك الفنون .

اما اولاهن واجلهن شأنا فكليوب Calliope اي « العذبة الحديث » . قالوا انها بلغت من المجد والقوة مبلغاً نازعت معه ابولون نفسه الرياسة : ابولون اله الفنون ورئيس الجوقة في محـافل الالهة – نازعته ولكن في غير خصام . ولا ادل على ذلك من انها تزوجت به فيما يروي الشعراء . قالوا وكانت كليوب في اول امرهـا ربة الشعر القصصي يوم ان كان المجد كله لهذا الفن الى ان نمت الحيـاة السياسية فاتخذت الخطابة مكان الصدارة بين فنون القول فاصبحت ربتها حتى لكنت تراها دائماً في صحبة الزعماء والملوك ومن الناس من يزعم انه عندما دالت دولة الادب فجفت قلوب البشر حتى اصبحوا عقولاً مجردة لا تقيم لغير العلم وزنا تطاول العلمـاء الى كليوب الربة الرائعة فاتخذوها الهة لهم – وكأني بهم قد فطنوا الى ان العلم نفسه لا يتقدم بمعادلات الرياضة ما لم يتزله الالهام السبيل؟ ولمن شاء من القراء ان يستجلي طلعة هذه الربة كما خلفها لنا اليونان مجسمة في الرخام او منقوشة على جدران المعابد اذن لرأى فتـاة هادئة مستجمة في جلستها وقد القت رأسها الى يسارها وارتفعت الى فخذها وامامها الواح منشورة وبانامها القلم في هيئة من يكتب او من يقرأ ما كتب .

واما كليو «صوت المجد» فربة التاريخ تراها جالسة وبيدها بوق يردد مجد الغابرين او ساعة مائية يحكي سقوط مياهها قطرة قطرة تتابع خطى الزمن .

وايتيرب Euterpe اي « البهيجة » فربة الموسيقى ، ولا ادل على ذلك من انه ما يقع عليها بصرك الا رأيتها وبيدها ذلك الناي المزدوج الذي يتميز به اتباع ديونيزوس اله الخمر والمرح .

وللكوميديا ربتها « تاليا » Thalia ربة قديمة ، طالما صدر عن وحيها المغنون والعازفون في ولائم المرح كما يدل عـلى ذلك اسمها (النشوة الخضراء) ولطالما اوحت الى الشعراء من امثـال فرجيليوس بأنضر النغمات عندما كانوا يتغنون بجمال الريف ، ذلك الريف الذي نشأت به الكوميديا في اعياد ديونيزوس الريفية فاصبحت تاليا ربتها . ومن السهل لكل من يراها ان يحكم بذلك من وجهها الضاحك وقد توجت رأسها بغصون خضر وامسكت بيسراها قناعاً ضاحكاً وباليمنى غصن العنب المعكوف رمز ديونيزوس .

وعلى العكس منها ميلبومين Melpomene الجادة الملامح الحزينة السمات ، تلك الربة التي سموها « المنشدة » لطول ما تغنت بآلام الابطال وما انزلت بهم المقادير من محن حتى حسبها الشعراء الهة الغناء والموسيقى يوم ان كانت التراجيديا اغاني ونغمات اكثر منها حواراً حتى اذا اخذ الكلام يطغى شيئاً فشيئاً على الغناء والموسيقى في هذا الفن الجميل «التراجيديا» انفردت به تلك الربة . تراها حتى اليوم وبيسارها قناع البطل هرقل كما انتزعه الموت وسط الالام وبيمينها عصاه الغليظة التي طالما حطم بها الاشرار من رجال ووحوش .

وعلى رأس الجوقات الراقصة في المحافل او في التمثيل كنت ترى « تربسيكور » Terpsichore « بهجة الرقص » وبيدها عود تغمز اوتاره بأناملها الرقيقة وقد حنت اليه رأسها تسقط نغماته العذاب وقد رفعت في خفة ساقها الايسر فانكسر خصرها ونم ثوبها عن جسم ارهف الرقص جماله .

اما ايراتو Erato التي بلغ من جمالهـا ان حسبها بعض الشعراء افروديت الهة الجمال نفسها فربة الشعر الغنائي وبخاصة شعر الغرام كما يدل اسمها « المغرمة » تراها وقد حمي في نفسهـا الوطيس واشتدت الاهواء فنشرت خمارها من خلفها وبيدهـا عود كالذي رأيناه مع تربسيكور ولكنها لا تغمز اوتاره برفق وايقاع مثل

اختها بل تضربها في عنف واضطراب .

اما « بوليمني » Polymnie اي « المذبة الاناشيد » فأكـبر الظن انها مصدر ما تغنى به الشعراء من مجد الالهة ومجد الابطال في الشعر الغنائي وان لها لوقاراً يكسوها قداسة ، الا تراهـا في ثوبها الضافي الجليل وقد حنت ذراعها الى صدرها ورفعت الاخر الى وجهها وقد وضعت اصبعها على فمها كالمستغرق في تفكير عميق حتى لقد حسب الرومان انها تدعوهم الى التعبير عما بنفوسهم بغير ألفاظ فاتخذوها ربة لذلك الفن الذي راج لديهم رواجاً كبيراً وهو فن التمثيل الصامت .

ولئن كانت ربات الوحي بنات للذكرى فان اباهم هو زيس الذي يعلم المستقبل والحاضر كما يعلم المـاضي ومن ثم لم يكن بدعاً ان تنشأ من بين التسع ربة تحدث عمـا يجيء المستقبل من احداث تلك هي « اورانيـا » Urania اي « السمارية » ربة الافلاك ، التي لها بالجوقة المكان الثاني بعد كاليوب ، ولا عجب فقد كان التنبؤ بالمستقبل ومحاولة تحسسه داء عضالاً عند اليوناني القديم . تراها جالسة وبيسراها كرة ارضية انتثرت على سطحهـا النجوم وبيدها عصا تشير بها الى مواقع الافلاك في وقار عميق .

تلك هي الربات التسع ربات الوحي التي اعقبها « زيس » من « الذكرى » ليطر بن محافل الآلهة بأعلى الاولمب وعلى رأسهن أبولون اله الفنون . خالطن البشر يلهمن شعراءهم مـا يثلج الصدور ويبدد الآلام ، رأى فيهن هوميروس معنى واحداً هو الذكرى التي تقص نبأ ما كان في الايام الغابرة من بطولة وأبطال ثم انفردت كل منهن بفن عندما تعددت الفنون وتوفر على كل فن رجاله .

وانقضت الحضارة القديمة بسقوط روما في القرن الخامس الميلاد على يد برابرة الالمان الغزاة فباتت الربات التسع فلم يعد يستلهمهن احد حتى كان العصر الحديث عصر النهضة فعاد الشعراء الى بعثهن وقد اتحدن في نظرهم ربة واحدة كما كن في نظر هوميروس وان تغيرت نغماتها اذ لم تعد ربة ذكرى بل الهة شعر ولم تعد تقص انباء الماضي بل تعيش في الحاضر تلهم الشعراء غناءهم وتحنو على بلواهم وتصاحب خطاهم في كل سبيل . اولا تراها تؤنس موسيه « Musset » من وحشة « لياليه » عندما اثزل الآلام بقلبه حب عاثر فأتته الالهة في جوف الظلام حانية معزية راجية ان يجد في الاستماع لوحيها يصوغه شعراً خالداً ، ما يصرفه عن احزانه .

ولقد يجد الكتاب في صحبتها رفيق طريق يهدي خطاهم : فلقد تصرف ضرورة العمل في خدمة الدولة « شاتوبريان » الكاتب الفرنسي

سفينتي

✯

سفينتي صغيرة ناعمة
لكنها تسير بين الامواج ولا تخشى زمجرتها وصخبها
واذا ما هب الريح وعصف في صخور الشاطيء .
فخرجت الانات تلو الأنات
تراها ترفع شراعها الابيض برفق
وتميل الى اليمين تارة والى اليسار اخرى
وتتابع سيرها الدائم اتصل الى مينائها الصغير !

افتقوى عليها الامواج يوماً
وتستبد بها العاصفة فتحطمها تحطيماً
وتترك الشراع المعنى يردد آهات وزفرات
وابقى انا بعد في تيار الحياة وحيدة
خائفة من تلاشي امل
حائرة من ثورة الروح
اطلب الميناء ولكن
هيهات ! فهو بعيد ؟

سوف لا تتلبد السماء بالغيوم
الا ليظهر شراع سفينتي ابيض جميلا
ولا يتهددها الموج بالموت الا لتفاخر الامواج بالحياة والقوة
ولا تزأر بها العاصفة الا لتحول معمعها
الى لحن في الطبيعة فتي
هو مزيج من نشاط وامل وروح

من رأى سفينتي الصغيرة
يحنو عليها الافق ويبعثها النسيم متهادية
لتستقبل نفحة من نور الشمس
انها تميل الى اليمين تارة والى اليسار اخرى
وتتابع سيرها الدائم لتصل برفق الى مينائها الصغير ! !

حمص — منى فريد مسوح

المعروف عن الكتابة فيودع آلهة الشعر كما يودع صديق صديقه القديم!

«والان يا ربة الوحي، عودي الى أولك بالسماء. فقد بلغ الشوط غايته .... ايتها الربة، ان انسى قط وحيك وسيظل قلبي من السمو بحيث وضعته. لقد يضعف مر السنين ما تهبين من ملكات فيفقد الصوت نضرته وتجمد الاصابع على الناي، ولكن ما توحين به من شعور نبيل لا بد باق على السنين.»

والان ترى الام يقصد الشعراء بتلك الربات، الجواب سهل اذ في طبيعة شعراء اليونان الذين امعنوا في الحياة حتى خلعوها على كل شيء، وجسموها في كل فكرة ما يدل على انهم رأوا فيها مصدر الالهام الذي به تغنوا. واولئك قوم اختلط بنفوسهم الواقع والخيال حتى تبادلا صفاتها والى هذا يشير احدهم عندما يقول «ان هزيودس عندما يتغنى بربات الوحي لم يصدر في غناء عما سمع بل عن رؤيته لهن رؤية حقيقية» — ولئن قالوا انهن خلقن ليطربن الالهة بأعلى الاولمب فمن البين ان هذا الطرب انما يصدر عن البشر واليهم تعود اصداؤه فهن ربات الوحي يحدثن الشعراء عن الماضي كما يبصرنهم بجمال عالمي الالهة والطبيعة ليجدوا في الهامهن ما يبعث النشوة في قلوب شعب تفتح قلبه للحياة تفتحاً حملهم الى القول بأن هذي الربات اتخذن مقرهن في الاولمب الى جانب ثالوث الغبطة (Charites) أجليه Aglaé اي المشرقة وتاليا اي الخضراء مميمة ربة الكرو وديديا Euphrosyné اي بهجة الروح اللائي يبعثن المرح في كل حفل وفي كل قلب والى جوارهن جميعاً اقاموا الرغبة التي تحفز الى الحياة.

وللالهام مصادره التي حاول المتأخرون منهم ادراكها بعقولهم يوم ان طغت الفلسفة على الشعر فافسدته، قالوا: ان منبع الشعر لم يعد الذكرى كما كان الامر ايام هوميروس في ملاحمه بل الطبيعة عندما يخلو اليها الشعراء. عندئذ وسط الوحدة المطبقة تأتي ربات الوحي وبخاصة الى جوار الينابيع التي تحكي بخرير مياهها وصفاء طبقاته نغمات الشعر ولطافة معدنه ان لم تتحدث عن مصائر البشر. قالوا وهل ادل على ذلك من ان الكثير من الشعراء يحدثوننا عن القائهم لهن الى جوار نبع Agrippé الشهير بأرض بيوسيا؟

ومنهم من يرجع كل وحي الى الموسيقى فيرد الربات التسع الى ثلاث يستمدون اسماءهن من مقامات الناي، Nété الثقيل و Mesé المتوسط و Hypaté الخفيف وهم يذكرون ان تلك الاسماء الثلاث هي كل ما عرف الحجيج الوفير عددهم الذين اعتادوا المجيء الى معبد ابولون الشهير بمدينة «ولف» الى جوار برزخ كورنثا وصاحب هذا القول هو باوتارخ نفسه المؤلف الذائع الصيت.

بل ومنهم من حاول ان يجد فيهن رمزاً لعناصر الشعر فقال انهن ثلاث Meleté اي خالق الشعر و Mnemé اي الذاكرة و Aoidé اي الغناء. مشيرين الى ان كل شعر خلق نستقي مادته من ذكرياتنا او ذكريات الماضي — مادة نصوغها موسيقى لفظية تصلح للغناء.

وتلك كلها محاولات لم تنجح في صرفنا عن الايمان بأن الربات تسع كما رآهن هزيودس بعيني رأسه وكما آمن بهن معظم شعراء اليونان الاقدمين يوم كان خيالهم من الخصب والسذاجة الجبلية بحيث يرى تلك الربات الرائعات اللائي طالما آنسن وحشتهم وسط معابد الطبيعة.

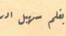
ولعل القراء يذكرون عند العرب ذلك الوادي الرائع وادي عبقر الذي اوت اليه جن خيرة كانت تمس الرجل منهم فاذا به عبقري من رجالها فلعلهم يذكرون شياطين الشعراء الذين تركزت في اسمائهم خواص كل منهم: فهذا مسحل بن السكران بن جندل صاحب الاعشى. والمسحل من سحل اللذات اي نهبها على حد قول صاحب القاموس «ركب الغي مسحله اي تبع غيه فلم ينته» وهذا المسحل ابن للسكران وهل احفز من الخمر الى اللذات وهل امعن الاعشى في شيء قدر ما أمعن في شربها ووصفها ومسحل بن السكران ولد الجندل ولد للصخر مما يذكرنا بقول عبد الملك بن مروان لمؤدب اولاده: ادبهم برواية شعر الاعشى فان لكلامه عذوبة: قاتله الله. ما كان اعذب بحره واصلب صخره وبجندل جد مسحل تركزت هذه الصلابة. وهذا هاذر بن ماهر صاحب النابغة الذبياني: الهاذر المكثر — ولكنه اكثار فيه جودة ويسر وشاعرنا الذي ان يكن وحيه هاذراً فهو ابن لماهر حتى لقد تواتت الدهشة نقاد العرب فقالوا ان هاذراً اشعر الجن واضنهم بشعره فكيف سلسل لاخي ذبيان به. وهذا لافظ بن لاحظ صاحب امرىء القيس العذب اللفظ الدقيق الملاحظة في كل ما وصف من نساء او معالم — ثم اذكروا قولهم انه لولا هبيد ما كان عبيد.

والان ماذا نستطيع. وقد ماتت الربات اللائي لم يعرفن اليناسيلا وهاشياطيننا قد ولت عن ربوعنا فاصبحنا وكأننا بواد غير ذي زرع، او ما ترون اننا بحاجة الى ربات جدد يدفئن من ارواحنا ويؤنسن وحشتنا وقد جفت نفوسنا وسط هذا البؤس الذي تنطق به حياتنا مادية كانت او روحية. هيا الى الربات نستلهمهن وحياً جديداً يرفع من قلوبنا.

القاهرة — محمد مندور



قصة



اتأملها معنياً كل العناية باختيار اجمل ازهاري واغلاها ثمناً واوفرها شذىً وعطراً .. وكان يهتم بجمعها وتنسيقها اهتمام عاشق مدنف يتوسل بها الى ارضاء حبيبته واعجابها .. انه اليوم السابع الذي يدخل فيه هذا الشاب الصبوح، المشرق الوجه، الناعم القسمات، المرهف النظر، حانوتي، فيجمع باقة متضوعة من الازاهير وينقدني ثمنها، ثم يودعني بطيف بسمة ساهمة، قبل ان يتوجه الى المقبرة التي تقع من حانوتي غير بعيد .. ولست ادري اي حافز كان يدفعني لانتظاره، لأراه بعد حين خارجاً من المقبرة، يكفكف بمنديل ابيض دموعاً ترأرأت في عينيه ...

ان سراً يستكنّ ولا ريب بين جنبي هذا الشاب وينطوي في جوانحه، فيتململ في ناظريه حيرة واسى وشروداً .. واحسست برغبة ملحاح تدفعني في آن واحد لان اطلع على سره، وان اواسيه وافرّج عنه، اذا كان ذلك في وسعي. وتهيبت الموقف بادىء ذي بدء، فليس بودي ان انكأ جراحات ربما صارت الى الالتئام والبرء. ولكنني دنوت منه اقدم له وردة كبيرة بيضاء يضمها الى باقته، وقلت له بلهجة مترددة، محترسة:

– أأؤلمك ان سألتك يا سيدي عن الشخص العزيز الذي فقدت؟

فتنبه من غفلته، وأنحى اليّ نظرة ساهمة زخرت بالهم والاسى، ثم لم يحر جواباً.

– ايكون والدك او عمك او خالك؟

فأومأ برأسه نفياً .. قلت «ايكون شقيقك او شقيقتك؟»

قال – «لا ..»

قلت – «اذن هي زوجتك او خطيبتك او ..»

فعاد يومي برأسه نفياً وقد ارتسم على شفتيه طيف شجو .. وحرت انا في امري، ووجدتني في حرج .. اذن فمن يكون؟

وفجأة فطنت الى انني نسيت ان اذكر شخصاً قد يكون آثر انسان واعزه لدى المرء.

قلت في لهجة اقرار واقتناع: « – انها امك اذن؟» فتلبث لحظات لا يجيب، ثم ادنى منه كرسياً قريباً جلس عليه كأن قواه قد خارت، وقال بعد لحظات: «لا .. انها ليست امي»

فحدقت فيه وقد ملأ العجب نفسي، وهممت ان اقول «اذن فمن يكون؟» الا انه بادرني كأنه يستدرك:

– بلى .. انها امي.

فتألمت له وقلت بصوت خفيض: انه لمصاب جلل .. فعزاء لك وسلوى، يا سيدي!

قال وفي صوته ظل من نشيج: انت اول من عرف ذلك. فاستمع احدثك بمكنون سري ...

*

«كنت ذات صباح متوجهاً كعادتي الى مقر عملي حيث اشتغل كاتباً لاحد الملاكين. واذ بلغت اول منعطف يفضي الى الغرفة التي انزل فيها، ارتفع بصري عفواً الى شرفة دار هناك، فبصرت بامرأة في سن الكهولة تتبعني بنظرها في اهتمام، فلم آبه لها، وواصلت سيري. بيد انني اذ عدت في المساء، رأيتها على الشرفة في مثل وقفة الصباح كأنها كانت تنتظر عودتي، واعتراني اضطراب فجائي، الا انني لم انقطع عن مواصلة سيري الى غرفتي .. وتصرمت ايام لم تكن لتتغيب فيها عن المثول على الشرفة لدن ذهابي ومجيئي .. وكنت الاحظ انها ما فتئت تحدد الي النظر، وتزداد تحديقاً فيّ. وكنت المس في نظرتها عاطفة مبهمة لم اشعر الا ان فيها طيف حنين.

وانقضت تلك الايام دون ان يكون من همي ان ابادلها نظرة تكنّ اية عاطفة .. بيد انني الفيتني ذات مساء مشغول الفكر، متوزع البال، اتساءل في حيرة تملني: ولكن اي شأن لها بي؟ وماذا تبغي مني؟

وعلى الرغم من انني لم اكن اجد مبرراً للاهتمام بها، فانني كنت احس انها تشغل

حيزاً كبيراً من تفكيري . واحببت ذات يوم ان ادقـق في ملاحظتها ، علّني ابلغ بعض ما هو مستغلق عليّ من امرهـا . ولست ادري ، اذ بلغت المنعطف ، مـا الذي دفعني الى ان احني رأسي بالسلام عليها ، فاذا هي تنثني على الحاجز ، وتهز رأسها رداً لتحيتي ، ثم تبسم بسمة لا ادري كيف اصفها : بسمة تحوي عطفاً وحناناً وألماً . الم عميق تفسره نظراتها وتترجم عنه قسمات وجهها . . و كما وجدتني اسلم عليها عفواً ، الفيتني اتابع طريقي الى مقر عملي دون ان يتجاوز الامر ما حـدث . . وفي اليوم التالي القيت عليها السلام . فلاحظت عليها ترددا وحيرة لم ادر سببهما . كانت تضع يـدها على الحاجز ، ثم ترفعها الى رأسها تمسحه بها ، ثم تضعها على اعلى صدرها . . كأنما كانت تريد ان تشير لي اشارة ما ، فيحجبها عن ذلك سبب ما . . . وتابعت طريقي دهشا ، ولكن خطر لي ان التفت الى الشرفة قبل ان انفتل في المنعطف الثاني ، فرأيتها ترفع الى عينيها المنديل ، كأنما هي تبكي . .

واحسستني لا اطيق ان انحّي هذا الامر عن ذهني ، ورأيتني استغرق فيه عند كل لحظة فراغ ، فأقلبه على وجوهه ، فما ازداد الا بعداً عن فهمه وادراكه . . ولم يهدني حدسي الى اي عمل آتيه ، فيكون لي فيه مخرج من هذا الحرج المكؤود . ومرت عدة ايام اخرى كنت الاحظ فيها على المرأة الكهلة علامات الارتباك نفسها ، وسمات التردد عينها . . . وكنت اجدني انا الاخر مرتبكاً مترددا لا ادري ما افعل . . ولكنني لحظت فيما بعد انها تكون جالسة اذ المّ بالشرفة ، وانها تجهد في ان تأتي بعض الحركات فلا يتقدر لها ، كأنها لم تكن تستطيع ذلك ، وقصارى ما كانت تعمله ان تبسم لي بسمة حزينة ساهمة . . . فابادلها اياهـا . . بيد انني شعرت ذات صباح ان من واجبي ان ارى هذه المرأة عن كثب وان اقابلها ، واتفهم منها ما تبغي ، فقد تكون بحاجة الى عون او مساعدة . ولكنني حين مررت بدارها ذلك الصباح كفرت بهذه الفكرة . . ان دارها فخمة جميلة ، فلا بد ان تكون ذات ثراء ، ولا بد ان يكون لها من يعينها على امرها . . . غـير انني عدت اشعر وانا في مقر عملي برغبة ملحة في ان اقابلهـا واستبثها سرها . . وما يدريني ؟ لعلني اصيب منها فائدة ، انا الذي يعيش في عسر من العيش ؟ ! وهممت ذات مسـاء ان اطرق بابها ، ولكن تهيباً عراني ، فصرفني عن ذلك . واعدت محاولتي مرارا ، فكنت اخفق قبل ان تطرق اصابعي الباب . . .

وذات صباح ، مررت بالشرفة ، فراعني ان اجدها جالسة على كرسي طويل ، ملتحفة برداء صفيق ، على الرغم من ان الجو كان حارا ، ولمست ان الانشراح الذي يشرق به وجهها ، كان متلاشياً ذاك الصباح . . ولم تستطع الا ان تبسم لي بسمتها الحزينة . . واذا انا اشعر بالم لها ، وبشيء غير الالم . . احسست انني غدوت احب هذه المرأة ، وان وشيجة من مودة قد ربطت بين نفسينا ، وانني القى منها عناية وعطفاً تطيب نفسي بهما . وعقدت النية اذ اعود في المساء على ان اطرق بابها دون ما تهيب وان اواجهها ، واستطلع امرها واقول لها ان بوسعها ان تعتمد علي . . . ولكن حدث في ذلك اليوم ما لم اكن احسب : ذلك ان الملاك الذي كنت اعمل كاتبا لديه ، امرني ان اتوجه الى قرية خارج المدينة يود ان يبيع فيها املاكه الواسعة ، ويريدني ان احضر هذا البيع حتى يتم . . . وعلى الرغم من انني جهدت وسعي للتعجيل في بيعها ، فانني قضيت اربعة ايام في القرية ، اعين الملاك على مقاولة الزبائن ومساومتهم وفي مساء اليوم الرابع عـدت الى المدينة ، وفي نيتي ان اصل ما انقطع من اسباب عزمي على طرق باب المرأة العجوز ، ولكني حين فتحت باب غرفتي لابدل ثوبي ، عثرت امام العتبة على مغلف ابيض . . . »

ووضع الشاب باقة الازهار التي كان قد اتم جمعها ، ثم اخرج من جيبه مغلفاً ابيض قدمه الي دون ان يقول شيئاً ، ففتحته عـلى عجل واذا انا اقرأ :

« عزيزي نعيم . . .

« يشاء القدر الظلوم ان يصيبني مرض الموت الذي اشعر به شعوراً جلياً ، قبل ان تتاح لي رؤيتك عن كثب ، ومكاشفتك برغبتي التي ترمضني منذ وقت غير يسير . لقـد اعدت الى نفسي يا نعيم املا كنت احسب انه تـلاشى الى الابد . . لقد كانت احاسيسي كلها زهداً بالحياة ، قبل ان اراك ، فاشعر ان بوسعي ان اجدد املي في الحيـاة ، اذ اجدد حب « فؤاد » فيك . . فؤاد . . ولدي الوحيد ، الذي طعنني القدر المشوم بقتله يوم ضحى بـه في اصطدام مروع ، حين كان عائداً من كليته يحمل دبلومها النهائي ، والفخر والاعتزاز ملء برديه : والرجاء المستطاب طي جانحيه : ففجعت باعز الناس الي في اجمل ايام حياتي ، وظللت مصروعة بهول المصاب اعاني اشد احاسيس الالم ، واسلم نفسي للقدر ، يعدم في الحياة كما اعدمها في فلذة كبدي . . حتى رأيتك يا نعيم وانت تجتاز

الطريق تحت شرفة داري ، فنظرت اليك ملياً . . وراحت شفتاي تتمتمان على خشية : اليس هو يشبهه ؟ . . وردد كل ما في : بلى . انه يشبهه شبهاً عجيباً . . انه ينزع الى فؤاد في قـامته الفارعة ، ووجهه المشرق ، ونظره المرهف . . » ورحت انتظر مرورك ، احدق فيك ، وانا اخشى ان اكون في حلم . . ورحت انعم برؤياك ، فاري « فؤاداً » واسر لك ، فاسر لفؤاد ، واشعر بحبك ، فاستعيد حبي لفؤاد . . وظللت انتظرك صباح مساء ، وكانت اجمل لحظات حياتي لحظة تمر فتبادلني نظرتي الحنانة . . واذا انا اشعر ذات يوم برغبة افرحتني وآلمتني في آن واحد : كانت تفرحني حين اتخيل انك ترضى بها ، وتؤلمني حين اتمثلك منصرفاً عنها . . كنت اريدك بقربي يا نعيم ، اتلمس يديك ورأسك ووجنتيك وافضي لك برغبتي في ان . . تحل محل ولدي فؤاد . . كنت ارغب رغبة مرمضة في ان تصبح ولدي . . في ان اتبناك اذا لم يكن لك والدان ، او في ان تعيش الى قربي تشعرني بحبك ، وتتيح لي ان استعيد عاطفة الامومة التي فقدتها ، فانعم بدفئها . . . كنت على استعداد لان ابذل كل ثروتي في هذا السبيل . . ولكنني كنت اصطدم ابداً باروع حقيقة : ان اماً لن تتخلى عن حب ابنها، وان ابناً لن يتخلى عن حب امه ولو بُذل مال الدنيا لهما . . والذي كان يفاقم المي انني لم اكن اعلم عنك شيئاً . . انني لا اعرف الا انك تسمى « نعيم الغـالي » كما افهمني بائع الفاكهة . . وفي سبيل ذلـك ، كنت اجهد في ان استميلك الي ، اذ كنت تلم بالشرفة . فاحـاول ان اومي لك بالمجيء ، فتخونني حركاتي ، وتحبسني عن دعوتك خشية الصد ، وخوف الهزؤ ، فاجتزئ بابسمة حزينة تفرج من كربتي . وانك لم تكن لتلاحظ يوماً انني كنت ابكي فيك فؤاداً كلما غربت عن ناظري . . انك لم تكن الا لتزيدني شوقاً وحنيناً الى ولدي القتيل الغائب ، اذ لم يكن يتاح لي ان اراك عن كثب . وعـلى الرغم من انني لم افقد الامل كله في ان اقابلك يوماً ، فانني كنت احس ان الوهن يفت في عضدي، والضعف يدب في كياني ، فاستشعر اقتراب منيتي . . ولكنني كنت اكتفي برؤيتك مرتين كل يوم، واتزود من نظراتي اليك بقوة تمسك علي رمقي بعض الزمن . كنت اتحمل المي وضعفي في سبيل ان اخرج الى الشرفة لانعم بمرورك . وكنت ارجو يوماً ان تشعر بانني اكابد مرهف الالم في البعد عنك، فتوليني بعض عطفك . . الى ان اتى اليوم الذي انقطعت فيه عن المرور ، فقوضت في نفسي آخر خيوط الرجاء والامل ! وارسلت خادمتي تبحث عنك لتنبئك انني قد اوصيت لك بكل ثروتي واملاكي ، فكانت تصطدم طوال ثلاثة ايام ببابك المغلق ، وبجواب « لم يأت بعد » في مقر عملك . . وكان هذا كافياً لان يبدد آخر آمالي ويذروها هباء . . . وامرني الطبيب بلزوم فراشي ، فلزمته مكرهة ، وعيناي معلقتان بالشرفة تنتظران مجيئك . . وها هو اليوم الرابع قد اتى ، وانت لما تجيء ، وانا احس في كل لحظة ان الموت ينشب في صدري اظافره . . . فاذا بلغتك هذه الرسالة وانا بعد في قيد الحياة ، فنعمت هي اللحظة التي تسمح لي فيها ان اراك ، وان اضمك الى صدري آخر ضمة ، فاتذكر ولدي آخر ذكرى . . واذا بلغتك رسالتي ، وقد طواني الردى ، فلا تنس اماً فجعت بولدها . فراحت تلتمس العزاء في شخص يشبهه ، واحبت هـذا الشخص كما احبته . . . وطب نفساً يا عزيزي نعيم في ان تلقي على قبر هذه الام زهرة ترطب تربته . . . ووداعاً ، يا ولدي الآخر . . »

اميره سالم »

*

نظرت الى « نعيم . . . » الشاب وانا اغالب دمعة تأبى الا ان تطفر من عيني . . ورأيت في عينيه ، هو الآخر ، دمعتين كبيرتين كفكفهما ليتابع حديثه . . .

« لم اكد انهي قراءة هذه الرسالة ، حتى احسستني اندفع على عجل ، دون ان ارتدي ثوبي النظيف، فتسوقني الارض سوقاً ، وفي صدري امواج متلاطمة من الهم والاسى والعذاب ، وملء نفسي امل يتيم في ان اجدها على قيد الحياة . . ورقيت سلم الدار ، وانا اكاد اتعثر لفرط ما بي من اضطراب . . وطرقت الباب فبرزت الخادمة وبادرتني بالسكوت وراحت تسائلني عما ابغي، وشعرت انني ادفعها جانباً ، واتوجه من غير وعي الى داخل الدار . وما لبثت ان رأيتني امام باب مشقوق ما عتم ان خرج منه طبيب ، فاشار الي بالصمت ، وامسك بذراعي وهو يقول :

— : ارى الا تقابلها الآن . . انها في حالة خطرة . . .

فغشيتني موجة ذعر وخوف ، ولبثت لحظات متقطع الانفاس ولست ادري اية قوة استشعرتها عنـد ذاك ، فانتحيت الطبيب ، ودخلت الغرفة بقدم ثابتة . . .

من مفكرتي

*

البداية والنهاية

يبدأ الهوى بلغة العيون وينتهي بلغة الشفاه ... فالنظرة هي بداية حب القلب ، والقبلة بداية حب الجسد !

دموع الوردة

.. وتستيقظ الشمس كل صباح فترى هذه الوردة الصفراء وفي عينيها من الليل الندي دموع كحب اللؤلؤ ...

مسكينة هذه العاشقة الشاحبة اللون .. فهي ، ككل المحبين ، يتفتح قلبها في الليل وتفيض دموعها في الصباح ...

بين العينين والساقين

ان التي جمالها في عينيها يرفعك حبها الى السماء ، اما التي جمالها في ساقيها فان « حبها » – اذا جاز لنا ان نسميه حباً – يخفضك الى الجحيم ...

افلا ترى معي ان الخالق قد راعى هذا التفاوت ، فجعل العينين في أعلى الجسم والساقين في الاسفل ؟ ..

انفاس الزهور

حتى الزهور اصبحت خطرة !

فاني صرت اخشى ان انام معها في غرفة واحدة ..

وذلك لان كتب العلم تروي – والعهدة على الراوي – ان الزهرة ترسل في الليل انفاساً خطرة كأنفاس المرأة سواء بسواء !

فهل يكون معنى ذلك ان على طالب الجمال ان يدفع «الثمن» حتى مع الزهور ؟ !

وجنات التفاح

ترفق بالتفاحة يا هذا !

اياك ان تنزع عنها قشرتها الحمرة فتجردها من حيائها وتدع لحمها الابيض عارياً ...

ان وجنات التفاح ، كخدود النساء ، لا تؤكل وانما تشم وتضم .

واذا استفزك نهمك فحرام عليك ان تقشرها بالسكين بلا رحمة ، بل عضها باسنانك !

حمرة الشفاه

حمرة الشفاه يخيفك طلاوها فيبعدك عن التفكير بالقبلة ...

وهكذا يذهب معنى الثغر واللمس .. فترخص الشفاه وتعلو « اصابع الحمرة » ! ..

رياض طه

رأيتها في سريرها ، مغمضة العينين ، يعلو قسماتها الاصفرار والشحوب ، هادئة ساجية ، ما تنبس او تريم ... واقتربت من السرير راعش القلب ، واجف الصدر ، ولبثت اتأملها لحظات .. وجننت فرحاً ان ارى صدرها يعلو ويهبط بالتنفس . ثم رأيتها فجأة تفتح عينيها كأنها استشعرت وجودي ، وما لبثت ان حدقت في ، ثم اذا بوجهها يشرق اشراقة الحنين ، وتهب جالسة في سريرها ، ثم تمد ذراعيها بقوة وتتعلق بعنقي وهي تصرخ :

– فؤاد ... حبيبي ... روحي ...

ثم اذا بي احس بغتة بذراعيها تسترخيان ، وتنملسان عن عنقي ويثقل جسدها ، فتهوي على وسادتها ، واذا انا اهوي فوقها ، الثم وجنتيها وجبينها ورأسها ويديها ، وامرغ دموعي في عنقها ، واردد والنشيج يقطع انفاسي ويبح صوتي :

– امي ... حبيبتي ... امي ...

وهرع الطبيب يجس نبضها ، ثم التفت الي يائساً وهو يقول :

كان آخر جهد بذلته ... كانت الصدمة شديدة جداً ... لقد ماتت ! .. قال نعيم ، وقد نهض يحمل باقة الازهار :

– اجل ... دعوتها بامي ... لانني وحيد في هذه الدنيا لقد فقدت امي وانا بعد في المهد ، فحرمت عطف الامومة الرؤوم وشعورها الحادب .. وكم تمنيت لو ان احداً يعطف علي ويحنو على فؤادي اليتيم ، فينسيني الحرمان واللوعة والمرارة ... حتى اذا اوشكت على بلوغ هذه الامنية في « اميرة سالم » تعرض القدر الظالم فبدد لي الامل ، وهكذا فجعت بامي مرتين !

ورفع نعيم منديله الى عينيه يلتقط دموعاً صبيبة ، لم يستطع لها دفعاً ، فتناولت بيدي اليمنى اكليلاً جاهزاً من الزهور والرياحين ، وتأبطت بيدي اليسرى ذراع نعيم ، وخرجت معه الى المقبرة ، لاضع باسمي باقة ثانية على رمس امرأة ، فجعت ، هي الاخرى ، بابنها مرتين .

سهيل ادريس

غـنـاء

غنّ لي ، ينداح في صوتـك لونٌ عطرُ
نفسي هفت ، اي زمـان ؟ في دمي مدّخر
يلم بي رعش الصدى فمعرض وصور
جداول ، يا زورقي في نشوات خـدر
تنساب فيها قُبلٌ مزهوّة وغر
ونكهة مذ ذقتها روحي بشهد تقطر

***

صوتٌ أذوق طعمه والعـين فيه تنظر
فكل عيني اذنٌ تاقت واذني تبصر
والعطر قال خاطري أشمه فأسكر
يا صوته شربته ربّ صدىً يُعتصر
عانقته ، راقصته ، أي شذاه يهصر ! ! !

***



اسبح ان ذرّ ممنـاً من الجمـال يبهر
فكل شيء في يّنساب يهي ويخطر
ويا أنا ، لا شيء ، فالكون جمال انور

***

كشفت لي المجهول يا صوت فماذا تظهر
مراحـل وعيتها لم تكتنها الاعصر
اغرقتها بين الخطى وكل نجم مغور
اروح ، هـا نحن هنا ، لا شيء غيرُ ، يذكر
فقـل لهم : كل طريق رامنـا معفر
يسدّه الليل ويحبو فيه موت احمر

***

بلغت في ارجوحة بعض ، مداها القدر
خيوطهـا مرت بذهن الغيب وهي تخطر
فكل افق في سؤال حـائر يستخبر
باء ، فدنيـا من فراغ وهزال اصفر

***

فغنّ لي ، لا ينبري صوت ، ويهفو وتر

درعا — علي محمد شلبي

النزعات النفسية في الادب المهجري *

بقلم أنيس الخوري المقدسي

استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق

☆

توطئة :

ولئن كان اتصال الشرق بالغرب عن طريق المهاجرة يمس جميع اقطار الشرق العربي، فمما لا ريب فيه ان للسوريين عامة وللبنانيين خاصة النصيب الاوفر من هذا الاتصال . فمنذ منتصف القرن الماضي (او قبل ذلك) اخذوا يركبون البحر زرافات ووحدانا الى المهاجر الاميركية وسواها ، حتى انك قلما تجد في لبنان اسرة ليس من اعضائها احد هناك، بل ان بعض هذه الاسر قد نزح اكثر اعضائها او كلهم .

ومع اننا نرى الكثيرين اليوم يؤمون اوروبا واميركا طلباً للعلم او للتخصص في فرع من الفروع، فان ذلك لم يتسع نطاقه الا في عهد متأخر . اما الحافز الاول والاهم الى المهاجرة فقد كان طلب الرزق، ويتلوه الهرب من الظلم والفساد . ولم يخطىء صاحب كتاب « المهاجر السوري » اذ قال[1] — « وكان الباعث الاكبر على المهاجرة اختلال الاحوال الاقتصادية في السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية التي جرت على مذهب فرق تسد . حتى تضعضع الامن وسادت الفوضى ودرس العلم وثقلت المعيشة ».

« وما بشر الناس بخيرات اميركا ، حتى هرع الكثيرون الى البواخر تحملهم الى شواطىء العالم الجديد حيث افلتوا من عُقل التقاليد، وانفكوا من قيود الفقر والمظالم وتنفسوا الصعداء . »

وفي اضطرار اللبنانيين الى الهجرة يقول الشاعر اللبناني[2]

امسى بنوك وما في الحي مرتزق لهم ولا لأبيّ منهم شغل

فازمعوا البعد عن اوطانهم حذراً من فاقة اهلها بين الورى همل

مضوا وقد حملتهم كل جارية تفري العباب وفيها النار تشتعل

لم يدر راكبها والبحر مضطرب افوقها امل ام تحتها اجل

لم يبرحوك اختياراً بيد انهم ضاقت بهم جنبات العيش فانتقلوا

ويصل ذلك بوصف حال البلاد وتقاعس اغنيائها عن تأسيس الاعمال النافعة . ثم يصف اميركا وعظمتها وما فيها من فرص سانحة لاهل العزم والايمان .

وكان هم المهاجرين اولاً جمع المال وارساله او العودة به الى اهلهم وانسبائهم، فتدفقت ملايين الريالات على هذه البلاد وظلت كذلك حتى الى ما بعد الحرب العالمية الاولى ولا تزال نوعاً ما الى الآن .

والذين عادوا الى الوطن حملوا معهم فضلاً عن المال روحاً جديدة وآمالاً جديدة، كان لها اثر في ترقية الحياة المعنوية لا في قطرهم فقط بل في الاقطار المجاورة ايضاً .

ولا ينكر ان القسم الاكبر من المهاجرين قد استوطنوا ديار غربتهم، وهناك نشأت منهم اجيال ضعيفة الصلة بالوطن الاصلي . على انهم برغم ذلك لما يفقدوا بعد شخصيتهم المعنوية ، فقد حملوا الى شتى المهاجر لغتهم وادبهم فانشأوا الصحف والنوادي وشاركوا العالم العربي في نهضته الفكرية، فنبغ بينهم جماعة من كبار الكتاب والشعراء . والى ذلك يشير شاعر النيل حافظ ابرهيم في قصيدته « لمصر ام لربوع الشام تنتسب» اذ يصف اقدامهم ومساعيهم المادية وخدماتهم الادبية .

لم تبد بارقة في افق منتجع الا وكان لها بالشام مرتقب

ما عابهم انهم في الارض قد نثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشهب

سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت ام اللغات بذاك السعي تكتسب

فأين كان الشآميون كان لها عيش جديد وفضل ليس يحتجب

*

---

* هي المحاضرة التي القيت في منتدى « وست هول » مساء الخامس والعشرين من الشهر الماضي .

(١) عن مجلة الزهور (مصر) ١ – ٤٤٥ .

(٢) امين ناصر الدين في ديوانه الالهام ١٠٦ .

والذي يطالع آثارهم الفكرية يلمس ما للبيئة من تأثير فيها . وهذه الآثار تتجلى لنا في بعض نزعات نفسية ترجع عند التحقيق الى اثنتين رئيسيتين هما — حب الحرية والحنين الى الشرق . وغرضنا فيما يلي ان نحلل هاتين النزعتين ونتبين اثرهما في ادب المهاجر الاميركية .

حب الحرية

ويرادفه حب التجدد او التخلص من كل ما يعيق المرء عن السير في سبيل التقدم . وقد سعى الادب المهجري في هذا السبيل سعي المجاهدين وغرس لنا في حقول الوطن والدين واللغة غروساً طاب جناها للآكلين ، وتظهر الحرية فيه بثلاثة مظاهر — الحرية الوطنية والحرية الدينية والحرية اللغوية . وها نحن نمر عليها مراً سريعاً ونعرضها بما يمكن من الايجاز .

الحرية الوطنية

ترك المهاجرون اوطاناً ترهقها المظالم ويغشاها الفساد الاجتماعي والاداري . فلما استنشقوا نسيم الحرية في المهاجر وتذوقوا لذة الادارة المنظمة شعروا بغبطة لم يعهدوها من ذي قبل ، فاخذوا يتغنون بالحرية ويشيدون بمحاسنها . على ان هذا التغني في كل من الاميركيتين طابعاً خاصاً . فالشماليون عموماً الميل الى المثالية العامة : يلتفتون الى اوطانهم القديمة وفسادها الاداري ويقارنونها باوطانهم الجديدة وحياتها الراقية فيقولون مع رشيد ايوب[3] .

الا لا ارانا الله عوداً لدولة نكون لها اسرى واموالنا نهبى
الـنا الالى عافوا الحياة بظلها وجابوا بلاد الله واستوطنوا الغربا

واقوالهم في هذا المعنى كثيرة يضيق دونها هذا المقام وكلهم يشعر في دار هجرته شعور الاسير فك من اساره . وكلهم فقيرهم وغنيهم يتمتع بكرامة لم يعرفها قبلاً في عقر داره . على ان ذلك لم ينسهم اوطانهم الاولى فهم يدعون لها بالخير ويتمنون ان تحظى بالحرية والعدالة ، ولسان حالهم يردد مع امين الريحاني اذ وقف على جسر بروكلين مواجهاً تمثال الحرية القائم على مدخل مرفأ نيويورك فقال يخاطب تلك الالهة[4] .

« متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ايتأتى ان يرى المستقبل تمثالاً للحرية بجانب الاهرام ؟ ايمكن ان نرى لك مثيلاً في بحر الروم؟ ايتها الحرية متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة » . ثم يلتفت الى البواخر المقلة خيرات اميركا الى الشرق فيقول : « خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي سواحل مصر وسوريا وفلسطين والاناضول . والى كل جزيرة تمرين بها وكل بلاد تقصدينها وكل شعب تحيي سواريك قبـاب كنائسه ومآذن جوامعه ، احملي سلام هذه الالهة التي تنير طريقك في الخروج من العالم الجديد » .

هذا الشغف او هذا الايمان بالمثالية الديمقراطية يبرز في ادب المهاجرين الشماليين وقد يتحول عند بعضهم الى دعوة للاشتراكية تمزج فيها النقمة على ارباب المال والاعمال بالعطف على الفقراء من العمال . ولا غرو فالاديب حساس مرهف الشعور واكثر الادباء كما سنرى ممن عضهم الدهر بنابه وحرمهم من اكثر اسبابه .

اما الجنوبيون فيمتازون بما تصطبغ به نفثاتهم من حماسة قومية ونزعات عربية ويزكي ما نذهب اليه شهادة الذين زاروهم وخبروا احوالهم . وهاك من ذلك هذه الكلمة التي نقتبسها من مقال للدكتور خدوري ممثل نادي القلم العراقي وقد بناه على اختباراته خلال رحلته الى اميركا الجنوبية لحضور مؤتمر نوادي القلم الذي عقد في بونس ايرس صيف ١٩٣٦ . قال[5] : « اما الشعراء والكتاب فارواحهم دوماً في البلاد العربية واجسادهم فقط في المهجر . وهم يتتبعون بدقة زائدة تطور القضية العربية . وينظمون الشعر ويتلون الخطب الحماسية خدمة للبلاد العربية . ومنهم الامير امين ارسلان بجريدته «الاستقلال» ، والسيد موسى يوسف عزيزه بجرائده اليومية والاسبوعية ، والدكتور جورج صوايا بمجلته « الاصلاح » ، والسيد موسى كريم بمجلته « الشرق » والشاعر الياس قنصل بمجلته « المناهل » . وعلى هذا الاساس تجد الجالية العربية في اميركا الجنوبية تشعر وتتحسس بما يشعر ويتحسس به العرب في كافة البلاد العربية » .

وقد طالعنا بانفسنا اكثر هذه المجلات عندهم وقرأنا منظومات شعرائهم كقيصر وفوزي وشفيق المعلوف والشاعر القروي وابي الفضل الوليد وعقل الجر والياس فرحات والياس قنصل وجورج صوايا وسواهم واطلعنا على اعمال نواديهم وجمعياتهم وما كانوا يقيمونه من حفلات تعزيزاً لقوميتهم . وهو الذي يحدونا ان نقرر لهم هذا الطابع القومي الخاص .

ولعل الفرق بين الطابعين الشمالي والجنوبي راجع الى عدة اسباب من اهمها اختلاف البيئة . فالمهاجرون وجدوا انفسهم في الجنوب بين اقوام لا يفوقونهم رقياً وعزاً فكان ذلك من اسباب

---

(٣) من قصيدته بلادي — الايوبيات ٤٠ .

(٤) الريحانيات ١ — ٥٦ .

(٥) راجع مجلة المعلم الجديد (بغداد) حزيران ١٩٣٩ .

بروزهم كعنصر يفاخر بماضيه ومآتيه . ولم يتيسر لهم ذلك في الشمال حيث بهرتهم الحضارة الاميركية فاخذوا بها وتغنوا بعظمتها ونظامها واصبحوا دعاة لروحها ومبادئها .

الحرية الدينية

وكما كره الادب المهجري الظلم وسوء النظام منادياً بالحرية الانسانية او داعياً الى الاستقلال القومي . كره التعصب الديني والنعرات الطائفية التي مزقت وحدة اوطانهم وجعلت منها فرقاً متعادية ومذاهب متضاغنة

احتك المهاجرون ولا سيما في الشمال باقوام يعظمون الجامعة الوطنية ويرفعونها فوق كل شيء ولا يرون في اختلاف العقائد ما يحول دون تآلفهم في سبيل المصلحة القومية وتعاونهم على ما فيه الخير العام . وقابلوا ذلك بحال اوطانهم الاصلية وما يسودها من شقاق وتخاذل فتحركت في نفوسهم عاطفة النفور من التعصب المذهبي حتى قام منهم من اخذ ينادي بالدين الانساني وبالايمان الشامل . او على الاقل يدعو الى حرية المعتقد وعدم التعرض بسوء لمن يخالفنا في رأي او مذهب . كقول احدهم[٦] : « عرفت قوماً يفضلون شعر المتنبي وآخرين يفضلون المعري او الشريف الرضى ولكنهم لا يتباغضون من اجل ذلك . اما اتباع موسى وعيسى ومحمد فلا يكتفون بالتفضيل » ثم يتساءل متهكماً : « سبحان الله امن المعقول ان ابغض اخي لانه رفض ان ينجو من النار على يدي ؟ اما كفاه قصاصاً ما سيلاقيه من عذاب الاخرة لرفضه اعتناق عقيدتي ؟ »

ولو جئنا نضرب الامثلة على ما جاشت به صدورهم من ذلك لاخرجنا مجلداً يضم طائفة كبيرة من الخطب والمقالات والقصص والقصائد . والحق يقال ان ادباء المهجر الا القليل منهم عصريو التفكير والشعور على ان لكل منهم لوناً خاصاً يميزه . فهناك المفكر الاجتماعي كامين الريحاني ، والمتمرد الروحي كجبران جبران ، والمحلل النفسي كمخايل نعيمة ، والمتأمل الفني كايليا ابو ماضي ، والمتحمس القومي كرشيد الخوري وكلهم يحفزهم شعور واحد وكلهم يرمي الى غاية واحدة ، بل كلهم يصرح مع محبوب الشرتوني[٧] :

كل شعب فشا التعصب فيه   هان والموت من وراء هوانه

ويتساءل في حيرة مع الريحاني[٧] - « اليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون ان تطبع روحه بطابع الملة وتصبغ

(٦) وليم كاتسفليس في بلاغة العرب في القرن العشرين (رضا) ٢٥٣ .
(٧) ديوانه ١٢٠ . (٨) الريحانيات ١ - ٣٤ و٣٧ .

بصبغة الطائفية » . وادب الريحاني من اوله الى آخره ينضح بهذه الروح الانسانية الواسعة التي لا تعرف من الدين الا نقاوة الضمير وحب الخير . فان الدين في نظره هو[٩] « ما انار القلب . ومتى كان ضمير جاري كنور الشمس حياً نقياً وقلبه كوردة تتفتح في الفجر لتستقبل ندى السماء ، فلا فرق اذ ذاك عندي ان ذكر بين الدراويش او سجد مع اليسوعيين او اغتسل في نهر الكنج مع البوذيين ، فهو المؤمن الحقيقي - هو الصادق في دينه - هو رجل الله الامين » .

وهذه الروح تشع في اقوال الكثيرين منهم . وقد تتقد في صدور البعض ولا سيما من كان منهم كالشاعر القروي يحسب التعصب الطائفي ضربة قاضية على وطنه وقوميته فتجمح به الحماسة الى مثل قوله من قصيدة في عيد الفطر[١٠] .

هبوني عيداً يجعل العرب امة   وسيروا بجثماني على دين برهم
فقد مزقت هذي المذاهب شملنا   وقد حطمتنا بين ناب ومنسم
سلام على كفر يوحد بيننا   واهلاً وسهلاً بعده بجهنم

ولم يكن القروي كافراً وانما هي مرارة نفس حساسة تتألم لحال الوطن ، وتطغى عليها الحماسة فتخرجها ساعة عن حد الاعتدال . فقد عرفت هذا الشاعر وقرأته ولا احسبه يرمي الى غير التساهل وتعظيم المثالية على انه عنيف في عباراته حاد في تصريحاته .

الحرية اللغوية

والادب المهجري نفور من التقاليد اللغوية او الانشائية التي يحاول بعض النصوصيين تقييد الادب بها . ولا نقصد هنا الخوض في مسألة النزاع بين المحافظين والمجددين فتلك مسألة قديمة ولها مقام غير هذا المقام . وانما يهمنا ان نقرر موقف المهاجرين منها واثرهم فيها . والواقع ان لهم في ذلك يداً تذكر واخص بالذكر منهم اعضاء الرابطة القلمية في نيويورك . فهؤلاء قد تذوقوا الادب الغربي واشربوا الروح الرومانتيكية ولما التفتوا الى الحركة الادبية في الشرق ورأوها تسير ببطء نحو التجديد وقد وقف لها بالمرصاد المتشددون المتنطسون ، هالهم ان يكون الادب خاضعاً لاحكام هؤلاء مقيد الخطى بقواعدهم . ولعلهم خافوا ان يؤدي ذلك الى رجعية تعنى بالقشور دون اللباب فرفعوا لواء الثورة وهاجموا المحافظين هجوماً عنيفاً وفي مقدمتهم جبران ونعيمه وهاك على سبيل التمثيل شيئاً من اقوالهما قال جبران على طريقته الشعرية او الخطابية من مقال موضوعه « لكم لغتكم ولي لغتي »[١١] -

(٩) الريحانيات ١ - ٢١٦ . (١٠) الاعاصير ١١١ .
(١١) راجعها في رمل وزبد .

« الكم منها القواميس والمعجمات والمطولات ولي منها ما غربلته الاذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف مأنوس تتداوله السنة الناس في افراحهم واحزانهم · لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق · ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب ودمعة في جفن المشتاق وابتسامة على ثغر المؤمن واشارة في يد السموح الحكيم ·· الكم منها الفصيح دون الركيك والبليغ دون المبتذل · ولي منه ما يتمتمه المستوحش · وما يغص به المتوجع وما يلثغ به المأخوذ وكله فصيح وبليغ · الكم منها القلائد الفضية ولي منها قطر الندى ورجع الصدى وتلاعب النسيم باوراق الحور والصفصاف ··· لكم منها الترصيع والتنزيل والتنميق وكل ما وراء هذه البهلوانيات من التلفيق ، ولي منها كلام اذا قيل رفع السامع الى ما وراء الكلام واذا كتب بسط امام القاريء فسحات في الاثير لا يحدها البيان » ·

اما نعيمة ففي « غرباله » كثير من هذا الباب · ونشير بنوع خاص الى مقاله « نقيق الضفادع » ويعني بالضفادع الرجعيين من الكتاب المتمسكين باهداب التقليد السائرين وعيونهم الى الوراء · يقول – « ان اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع الا لقوانين الحياة فهي تنتقي المناسب وتحتفظ بالانسب فعلام وقوقة الموقوقين في كل الاقطار العربية · تكاد لا تفتح جريدة او مجلة من جرائد سوريا ومجلاتها الا وتجد فيها باباً للوقوقة يدعونه تهذيب الالفاظ · فالقوم هناك في حرب عوان – ذاك يقول ان التعبير كذا وكذا خطأ ويستشهد بالثعالبي وذاك يقول انه جائز ويستند الى الزمخشري وهم يحسبون ان الحياة باسرها انحصرت فيما ينفون وما يثبتون · ولم يعدموا في مصر اخواناً لهم يتوسدون القواميس ويتلون عليها صلواتهم · وكل غايتهم في الحياة ان يقفوا من قصيدة او مقالة على كلمة او تركيب لم تألفها اذواقهم ولا رضيت عنها قواميسهم واذ ذاك يسمعونك نغمتهم العذبة واق واق ! »

ولم ينحصر حب التجديد عندهم في الثورة على النصوصيين والمتنطسين بل تجاوزها الى تجديد المواضيع الادبية والتفنن في اخراجها · ويبرز ذلك اكثر في ادب الشماليين وخصوصاً الشعر منه ولا ريب انهم متأثرون باساليب الادب الانكليزي والاميركي وفي طريقة نظر الغربيين الى الحياة والطبيعة ·

ولا ينكر انهم بذلك قد ساهموا مساهمة فعالة في توسيع الافق الخيالي وفي توليد افانين من النظم التوشيحي ولولا ضيق المقام لاستشهدت بكثير من منظوم ومنثور ادبائهم وانما اجتزيء هنا بمثل او مثلين على تفننهم في النظم ·

فالاول قطعة يخاطب فيها ناظمها السنة المدبرة[١٢] فيقول ·

روحي ! فكم شبّت وشابت سنين
من قبل ان بانت حواشيك
واليوم كفّ الدهر تطويك
عنا ، ومن يدري متى تنشرين ؟
روحي وخلينا – بالارض لاهينا
نرعى امانينا في مرج اوهام
ما بين ايام واعوام

والثاني – بعض ادوار من قصيدة « الطلاسم » لايليا ابو ماضي – ومطلعها –

جئت لا اعلم من اين ولكني اتيتُ
ولقد ابصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشياً ان شئت هذا ام ابيت
كيف جئت؟ كيف ابصرت طريقي؟ لست ادري

وفيها يصور لنا ما يشعر به من قصور الانسان عن ادراك اسرار الحياة ، يرى الظواهر ولكنه يعجز عن ادراك حقيقتها · فيقول في حيرته :

كلما ايقنت اني قد اماطت الستر عني
وبلغت السر سبرا ضحكت نفسي مني
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم اجدني ·
أفي الجهل نعيم امجحيم؟ لست ادري

*

انني جئت وامضي وانا لا اعلمُ
انا لغز وذهابي كمجيئي طلسم
والذي اوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل ذا الحجى من قال اني – لست ادري

هذه المواضيع المجردة – هذه التأملات الشجية والفنون النظمية تكثر عند المهاجرين ولا اظنني بعيداً عن الصواب اذا قلت انهم من اهم مروجيها في ادبنا الحديث ·

ولنتقدم الان الى النزعة الرئيسية الثانية في الادب المهجري –

الحنين الى الشرق

الانسان بطبيعته ميال الى ما يألفه فاذا غاب عنه افتقده وشعر بدافع قوي يدفعه اليه · وقد عبر عن ذلك المتنبي بقوله :

خلقت الوفا لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع الراس باكيا

وهو قول يصدق على الكثيرين من ادباء المهجر · ففي نفثاتهم الادبية نراهم شديدي التحنان الى ربوعهم الاولى يذوبون شوقاً الى مرآها كأن البين قد محا سيئاتها ولم يبق لتذكرهم غير حسناتها ·

(١٢) ديوان نعيمه همس الجفون ٢٦ ·

وبما ساعد على اثارة الحنين في نفوسهم احوال لازمتهم في ديار الغربة وآلمتهم ، واكثر ما يظهر ذلك في ادب المهاجر الجنوبية فكم من شاب غض الاهاب ترك ذويه واحباءه وركب البحر متجشماً المتاعب والاخطار وهو يأمل ان يوفق في مسعاه ثم يعود الى وطنه مثقلًا بالنضار ولكن الاقدرا خانته فعاش في غربته حزين النفس يقيمه الشوق ويقعده اليأس،وكأن الشاعر المهاجر نعمة الحاج قد نطق بلسانه اذ قال من قصيدة[١٣] —

تذكرت اهلي في النوى وبلاديا   وقد طال شوقي للحمى وبواديا
تذكرت هاتيك الربوع واهلها   ويا حبذا تلك الربوع زواهيا
تطير لها نفسي من الوجد والجوى   ويسى لها دمعي على الخد جاريا

وكم من مهاجر كان يحسب العالم الجديد منبعـاً للخير ومربعاً للهناء وسرعان ما وجد انه معترك هائل وجهاد عنيف وان عليه ان يكد اضعاف ما كان يفعل في وطنه ليكسب الرزق — اضنته حياة المعامل ونهكته الاسفار حاملًا بضاعته على ظهره او ثقل عليه تحكم اصحاب المال وارباب الاعمال فتذكر اذ ذاك قريته المتواضعة وحياتها الهنيئة وثار فيه تحنان اليهـا . ولكن أنى له الرجوع وبينه وبينها الوف الاميال وفراغ الجيب من المـال ! هكذا يصور مسعود سماحة حال المهاجر وقد قذفه سوء الطالع الى دار الغربة حيث صدمته النوائب وعـاركته الشدائد فيقول من قصيدته « المهاجر »[١٤] .

كم طويت القفار مشياً وحملي   فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم قرعت الابواب غير مبال   بكلال وقر فصل وحر
كم ولجت الغابات والليل داج   ووميض البروق شمسي وبدري
كم توسدت صخرة وذراعي   تحت رأسي وخنجري فوق صدري

وهذه صورة صادقة لحال كثيرين من المهاجرين ولا سيما بعض ادباء منهم اذ يحدثوننا عن اختباراتهم المرة ويشرحون لنا خوالجهم الشخصية كالشـاعر الآنف الذكر ، وكزميله القروي (رشيد الخوري) في قصيدته « السوري التائه »[١٥] . وهو يستهلهـا بالحنين الى الاوطان ثم يصف لنا حاله وبيئته البرازيلية وما كانت تقتضيه مهنته (مهنة بائع متجول) من اسفار ومكابدة مشاق . وفيها يقول :

دفنت ربيع عمرك في بـلاد   بهـا طالت لياليك القصارُ
اذا لم تحو تربتهـا حجاراً   فبين ضلوع اهليها الحجار
ثمارك من طوافك سعي نمل   وحظ صراصر بئس الثمار
فكم من يقظة لك في الدياجي   تقضّى قبلهـا نوم غرار
وفي اذنيك صوت مستمر   «رشيد» افق لقد صفر القطار

(١٣) ديوانه ١٧٧ (١٤) ديوانه ٣٣ .
(١٥) القرويات ٥٣ — ٥٦ .

وهكذا نرى الشاعر يطوف المدن والقرى راكباً اليها البحر والبر ولكنه لا يلقى من ذلك الا العناء والقهر . فهو اسير بيئة يود التخلص من نيرها وقرين هموم لا نجاة منها —

هموم لا ازال لهـا اسيراً   وشر مصـائب الحر الاسارُ
متى يا رب ينزع غلها عن   يدي ويفكّ عن نفسي الحصار
اروم الى ربى لبنان عوداً   ويمسكني عن العود افتقار
ولو خيرّت لم اهجر بلادي   ولكن ليس فى العيش اختيار

وهذا الشعور الاليم لترك الوطن والاضطرار الى الاقامة في دار غربة لا تقدم للمقيم بها سوى العناء والشقاء تحس بحرارته في نفثات ابي الفضل الوليد وخصوصاً في قصيدته « تأمـل وتأميل » التي يقول فيها[١٦] —

فديتك يـا ارض الشآم فمنك لي   ثراء على فقر وسكر بـلا خمر
متى اطأ الترب الـذي هو عنبر   واملأ من ارواح تلك الربى صدري

وهو يعود بالذكرى الى ايام صباه في لبنان ويحدثنا عن رغبته الشديدة في التغرب والحاحه على اهله ان يسمحوا له بذلك ، وبذلك يعبر عن شعور كثيرين من الفتيان الذين اندفعوا في تيار المهاجرة بالرغم عن نصائح الاصدقاء والعارفين —

فكم قيل لي اجّـل رحيلك يا فتى   لئن تدخل الدنيا رمتك عـلى عسر
فلم انتصح حتى اذبت حشـاشتي   وعانيت ما عانى الشجاع من الامر
لقد كنت طاعاً فاصبحت راضياً   بأيسر شيء اذ غلبت على امري

وممن رسموا شقاء المهاجر واسمعونا نغمات اساه وانات شوقه الى ربوعه القديمة المألوف في قصيدته « الهجرة »[١٧] وفرحـات في قصيدته « حياة مشقات »[١٨] وانشودته « وطني »[١٩] ومحبوب الشرتوني في « خطرات مغترب »[٢٠] ونعمة قـازان في « معلقة الارز »[٢١] وندرة حداد في ذكرى الغريب[٢٢] وابو ماضي في قصيدتيه « تأملات » و « لبنان »[٢٣] . وفي هذه الاخيرة يقول معبراً عن عواطف الجميع .

اثنان اعيـا الدهر ان يبليهما   لبنان والامـل الذي لذويه
نشتاقه والصيف فوق هضابه   ونحبه والثلج في واديـه

ولغيرهم كثير من هذا القبيل ولقد نلاحظ ان هذا الحنين كان منشأه في اول الامر شعور المهاجرين بألم الغربة عـلى ان هذا الشعور لم يبق على حاله بل اخذ يخف مع الزمان حتى كاد يتلاشى .

(١٦) ديوانه اغاريد في عواصف ٧٠ .
(١٧) تذكار المهاجر « ديوانه ٥ .
(١٨) ديوانه (١٩) مجلة البرق « بيروت» ٣٦ ٢٤ .
(٢٠) ديوانه . (٢١) نشرتها دار الطباعة بالبرازيل ١٩٣٩ .
(٢٢) ديوانه اوراق الخريف ١٢٠ .
(٢٣) ديوانه الخمائل ٧٩ و١١٢ .

وما يصلنا الآن من شوق المهاجرين الى الشرق او ميلهم الى الاتصال به فمن طريقين مختلفين: طريق سياسية وطريق روحية. فالسياسية تحمل الينا اهتمام اخواننا في المهاجر المختلفة باحوالنـا السياسية ومشاطرتهم ايانا آلامنا وآمالنا. ولست بمبالغ اذا قلت ان منهم من هو في مقدمة الذين جاهدوا في سبيل استقلالنا وعنوا اشد العناية بالدعاية لاتحادنا والمحافظة على كياننا. وقد ظهر لهم من الشعر والنثر ما لا يقل عن افضل ما ظهر في الشرق العربي نفسه.

ومنذ اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ الى الثورة العربية ١٩١٦ الى اعلان المملكة العربية بدمشق ١٩١٨ الى واقعة ميسلون ١٩٢٠ — الى الثورات الوطنية في العراق والشام وفلسطين ومصر الى الحرب العالمية الاخيرة وما عقبها من الاعتراف باستقلال اكثر الاقطـار العربية وما يتصل بذلك من مفاوضات ومشادات — كان للادب المهجري يد تذكر في المدافعة عن حقوقنـا واذكاء نار الحمية في نفوسنا. ويكفي ان اذكر هنا على سبيل التمثيل، الاعـاصير للشاعر القروي ونفثات فرحات والياس قنصل ومسعود سمـاحة والدكتور جورج صوايا وابي الفضل الوليد وعقل الجر ومحاضرات فيليب حتي وخطب الريحاني.

هذا فضلاً عما قامت به الصحافة العربية في الجنوب والشمال مما يطول بنا شرحه.

اما الطريق الروحية، فيظهر الحنين المهجري فيها بشكل نفور من المادة الغربية والتجاء الى الروحانية الشرقية. فقد سُحر المهاجرون في اول امرهم بعظمة الغرب العمرانيـة وتفوقه العلمي والصناعي على انهم بعد ان خاضوا غمرات الجهـاد هناك وذاقوا الامرّين في سبيل الرزق ظهرت لهم النـاحية السوداء من المدنية الحديثة — هذا الكفاح المضني لاجل المال. وهذه الحيـاة الميكانيكية الخالية من الجمال. هالتهم مدنية الآلات والمعامل — مدنية السرعة والزحام والتكالب والخصـام، فاخذ الادباء منهم يصورونها للناس تصويراً ينفرهم منها ويحبب اليهم جمـال الطبيعة وبساطة الروح. ولكن اين يحظى الانسـان بذلك؟ سؤال كان جوابه عندهم او عند اكثرهم — في لبنـان — في تلك القرى الجميلة حيث يخف الزحام على الرزق وحيث يسود السلام بين الخلق. هناك غبطة القناعة وجمال التواضع وسكينة النفس.

او ليس ذلك ما يرسمه جبران لنا في مقالة «مناجاة ارواح»(٢٦) اذ يقابل بين طلوع الصباح على اكبر مدينة اميركية وطلوعه على جبال لبنان — فيقول —

« قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة. فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة. وذهب التعساء الى المعامل وداخل اجسامهم يقطن الموت بجوار الحياة. وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف. كأنهم منقـادون قهراً الى عراك هائل مهلك. ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار. واصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف ويستأثر الغني المظلوم باتعاب الفقير المسكين ».

هذه صورة الصباح في الحاضرة الاميركية اما في لبنان فقد —

« استفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة على كتفي الوادي. وترنمت اجراس الكنائس وملأت الاثير نداء مستحبـاً معلنة بدء صلاة الصباح. وقد غـادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرهـا وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الاعشاب المتلمعة بقطر الندى. ومشى امامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع العصافير بقدوم الصباح ».

وللشاعر القروي كثير من هذه الحملات على مادية الحياة الغربية وهو يقرنها عادة بذكر الحياة الهنيئة في لبنان حيث يجد راحة النفس من متاعب الزمان، ومن ذلك قصيدة يقول فيها(٢٥) —

يا برازيل لو افضت علي المال فيضاً ما طاب فيك المقام
اين فصل الربيع فيك واين الشمس — اين الهلال — اين التمام
انت نعم البلاد جوداً وخصباً غير ان الهناء فيك حرام

وسبب ذلك عنده وحشية الناس في تكالبهم على حطـام الدنيا.

وكأن الورى وحوش بآجام وتلك الشوارع الآجام
منكب حك منكباً وجبين شج رأساً علام هذا الزحام؟

ومثل اختبارات القروي اختبارات زميله الياس فرحات. ففي شعره ما يشعرك بنفس ذاقت الامرين في معترك الحيـاة. ولا تحتاج الى اكثر من نظرة في قصيدته «بين الطفولة والشباب»(٢٦) لترى خوالجه الحماسة الثائرة على المادية بين الناس. وفيها يقابل بين حاله وهو فتى في منزل والديه بكفرشيما (لبنان) وحاله في المهجر يجاهد ويعارك في سبيل الارتزاق فيقول:

واهـاً على هاتيكم الليالي واهاً على ساعاتهـا الغوالي

(٢٦) بلاغة العرب في القرن العشرين «رضا» ٤٩.

(٢٥) القرويات ٥٩.

(٢٦) بلاغة العرب في القرن العشرين ٢٠٧.

وحبذا «الغدير والجبـــالي» وما لدى النهرين من جمال
وما لتلك الارض من جلال

فانني مذ غبت عن لبنانــا ما زلت امشي تائهاً حيرانا
عليّ ان احالف الخسرانا او لا فان احتمل الهوانا
والنفس لا تقبل ان تهانا

امشي من الاحزان والاوجاع كأن صنين على اضلاعي
احاذر الذئاب والافــاعي والناس عند الذهب اللماع
شرّ من الحيات والسباع

وعلى هذه الوتيرة قصيدته « عجل الذهب »[٢٧] وسواهـــا حيث يرينا .

اناســاً تدوس الآه الضمير وتحني الروءوس لعجل الذهب

وكل البلاء عنده كما عند سواه من ادباء المهجر راجع الى هذا التكالب على الاصفر الرنان . وما تقتضيه « المـــادية » من تنازع وظلم وبهتان !

ومن اجمل الرسوم الفنية في هذا الباب مشهدان بقلم مخايل نعيمة[٢٨] يقابل فيها بين الحياة الهائلة في مدينة نيويورك وينعتها بالتنين ، وحياة قريته الوادعة القائمة على سفح صنين وفي المشهد الاول « التنين يتنفس » نراه جالســاً على مقعد في حديقة عمومية وسط تلك المدنية الجبارة وهو يرسم لنا ما يراه من مختلف اشكال الناس واعمالهم . ثم يتساءل —

« من هؤلاء الناس ؟ من اين اتوا — لماذا اتوا وماذا يعملون في جهنم الارض ؟ أطرح عليهم هذه الاسئلة بعيني فتجيبني وجوههم المجبولة من تربة كل ارض بكل السنة الارض : ومن انت — ومن اين اتيت — ولماذا اتيت — وماذا تعمل في جهنم الارض ؟ فاصمت حائراً واعود اقلب نظري في جمـــاهيرهم المتألبة . . . وبعد ان يعرض علينا مشاهد المدينة المختلفة يقول — « الشمس في السماء . ولكن من في الحديقة لا يشعرون بها ولا يرونها لانها مقنعة بقناع اغبر كثيف ليس ضباباً ولا سحاباً . ان هو الا انفاس التنين المتصاعدة من الوف المداخن وملايين النوافذ ، وجبال متراكمة من الحديــد والحجر والقير والاسفلت ، وقوافل لا يدرك اولها من آخرها من العجلات العجلات المسيرة بالغاز والمسيرة بالبخار والمسيرة بالكهرباء . تتصاعد هذه في الهواء فينوء تحتها الهواء . ترفعهــا الارض بكل قواها الى فوق فتشمئز منها السماء وتضغط بهــا الى اسفل فتظل عالقة بين الارض والسماء خاطفة من الشمس حرارتها ، خانقة من النسيم انفاسه ، ضاغطة بصفائح من حديد محمية في نار جهنم على صدر

(٢٧) بلاغة العرب في القرن العشرين ٢٠٨ .

(٢٨) المراحل ٦٥ — ٧١ .

التنين المتمدد بين نهرين[٢٩] الفاغر فاه ليشرب البحر ويبتلع البر دون ان يرتوي يوماً او يشبع » .

وتحمله الذكرى وهو على تلك الحال الى عهد حداثته في لبنان — الى مزرعة في سفح صنين حيث السماء الصافية والميــاه الجارية والاعشاب الزاهية والطيور المغردة . وبعين الخيال يرى نفسه هناك مستلقياً على صخرة بيضاء فيعيد لنا بعض ذكرياته —

« عن يساري شاب سقاه صنين العافية والعزم والامل . هو مكب على بقعة من سنابل القمح يقطعهــا بمنجله قبضة قبضة . اراه ينتصب ثم ينحني . . اسمع رنات منجله تندمج بنبرات صوته الفتي المتموج —

من هون لارض الدير من هون لارض الدير
والسر اللي بيننــا اش وصلو للغير
ون كان ما في ورق لكتب عجنح الطير
ون كان مـــا في حبر بدموع عينيــا . . .

ثم اراه يجمع ما يقطعه من السنابل كوماً كوماً حاملاً منجله على ذراعه وماسحاً عرق جبينه بيديه » . ويختم وصفه بقوله —

صنين يتنفس ويحلم احلامه (قابل ذلك بتنفس التنين) والحاصد عن يساري يقطع سنابله ويحلم احلامه ، والبقرة عن يميني تجتر وتحلم احلامها . . العصافير في البلوطة تسدي الخالق شكرانها والمكاري في الوادي يرفع الى الله صلاة حبه . النهار يتقلص والاظلال تستطيل وعلى الصخرة الدهرية البيضاء صبي (يعني نفسه) يحلم بجنــات مدنية غريبة قصية .

مشاهد حقيقية — حياة التنين وحياة صنين ! المدينة الجبارة التي لا تنام والقرية الوديعة الغارقة في لطيف الاحلام هناك الدخان والضجيج والجهاد والزحام والعناء . والناس تحرق على مذابح الاصنام . وهنا الهناء والقناعة والجمال والحرية تتصاعد بخوراً الى آله السلام .

نظرات سوداء يلقيها الادب المهجري على الحياة في مدن الغرب ولا عجب فالادباء مجبولون على رقة الشعور وسرعة الانفعال لا يشبع نفوسهم غير التمتع بالحرية والجمال . فهم صوت واحد في الدعوة الى البساطة الطبيعية والابتعاد عن شقاء المدينة . وفي هذه الدعوة كما رأينا يتجلى حنينهم الصادق الى الشرق الفتان وخصوصاً الى وطنهم الحبيب — الى موئل الارز العزيز — الى لبنان .

انيس الخوري المقدسي

(٢٩) مدينة نيويورك واقفة بين نهر الهدصون والنهر الشرقي .

مهلا فؤادي

*

يا قلب مـالك مخمور المنى ، لهجـاً　　بالشوق ، تهدر ، في مجراك ، أمواه؟!
ومالك اعتضت ، من افق تطير به　　أفقاً ، يضيء نجيع الروح مسراه ؟ !
لبست ، يا قلب ، احلامي ، كما لبست　　روائح الخلد ارضاً هزهـا الله
وهمت تنشر أيامي ، وقد طويت　　وتستخف شبـابي ، وهـو اواه
سبحت بي ، أيها المشتاق ، في سحب　　خضراء ، انت بهـا زاه وتيـاه
ان تدنني من حياض الحب مترعة　　فملء صدري هوىً لم تدنُ سقياه
بي منك ، يا قلب ، ما بالقدر من حمم　　فيها ، ومن حولها ، ما رحت اصلاه
لعبت بي ، مثل لعب النجم ، مؤتلقا　　بتـائه ، في الدجى ، ثارت رزاياه
* يا أيهـا الخـافق الحادي ألا نغم　　تهدهـد المنتشي الصـاحي حُمياه
عيني ، على رجعك الحران ، وا كفة　　وهيكلي ، فيك ، قد ضجت حناياه
الا صبابة نعمى ، منك ، تسكبها　　سلوى لمغـترب لم يُلفِ سلواه
* سألت قلبي بعض الحب فانهمرت　　على صداي ، بكل الحب ، كفاه
أراه يبسم ، كالنوار ، فتحسبه　　قطر الندى ، فهفا ، بالطيب ، رشناه
كأنه واحة رق النسيم بهـا　　فهل احس ، أنا الصحراء ، رياه
هلّت بشـائره ، في مأتمي ومشى　　على شظـاياي ، غيث من شظاياه
دنياي لم يتسع رحب الوجود لهـا　　فهل تفيض ، على دنياي ، دنياه ! ?
وقد تسربـل بالاشواك ، دامية ،　　مرعايَ ، هل يزدهي ، بالورد ، مرعاه؟
* مهلا فؤادي ، اما عفت الصياح على　　اوتارك الغُنّ ، ام ما زلت تهواه ?
صحبتني ، فصحبت البحر ملتطمـاً　　والجمر مستعراً حمراً سجـاياه
عربدت ، هل انت مذبوح يثور على　　يد تحز واخرى الجمت فـاه ?
ام انت يا قلب ، مهر أرعن جمحت　　به السيـاط فلم تسلس مطـاياه
أأنت كاسر أغلالي وحاطمهـا　　ام انت قيد يعـاني الصبّ بلواه
ألهمتني الحب ، هل الهمتني قبسـاً　　من اللظى ذقت في نجواك جـلاه
كأني الى حُرَقي ، يا قلب ، اي هوى　　تبدّل حسنـاه ، آلامي ، ويسراه
واي رؤيا تغادى خاطراً ضرمـاً　　تنثال ، بالبؤس والاوصاب ، رؤياه ?

حمص　　　　نذير الحسامي

من فنون الحياة الاقتصادية عند الاقدمين

بقلم نور الدين بيهم
امين المخطوطات بدار الكتب اللبنانية

★

الاسواق

الاسواق موائد الله في الارض فمن اتاها اصاب منها[1] ومن لم يحترف لم يعتلف[2] .

الادب في الشراء

كان جرير بن عبدالله اذا اشترى شيئاً من احد قال لصاحبه ان الذي اخذنا منك خير مما اعطيناك[3] .

تجديد الاسعار قبل ١٣٠٠ سنة

حدث غلاء في ايام الرسول العربي محمد بن عبدالله فطلب منه بعض الناس أن يحدد اسعار الحاجيات فاجابهم : «اني لارجو ان القى الله وليس احد يطلبني بظلامة ظلمته بها في اهل ولا مال[4]» . ولا بأس بالرجوع مع القاري. الى ما كنا كتبناه عن تسعيرة المبيوعات[5] ووضع اوراق مكتوب عليها ثمن كل قطعة من الحاجيات[6] في عدد سابق من مجلة الاديب[7] .

الاوراق النقدية

اول من ذكر ظهور الاوراق النقدية بعد سقوط بغداد ، هو عبد الرزاق الفوطي في اخباره عن القرن السابع للهجرة ودعاها الجاو ورسمها كذا بواو مفتوحة بآخره وحكي ان صدر الدين احمد بن عبد الرزاق الخالدي صاحب ديوان الممالك في تبريز وضع هذا الجاو سنة ٦٩٣ هـ عوض السكة من الدنانير والدراهم وامر ان يتعاملوا به وعليه تمغة السلطان قال : « وكان من عشرة دنانير الى دون ذلك حتى ينتهي الى درهم ونصف وربع درهم فتعامل به اهل تبريز اضطراراً لا اختياراً بالقسر والقهر فاضطربت احوالهم اضطراباً اضر بهم وبغيرهم حتى تعذرت الاقوات وسائر الاشياء وانقطعت المواد من كل نوع[8]» فكان الرجل يضع الدرهم تحت ورقة النقد في يده ويعطي القصاب والخباز وغيرهما ويأخذ حاجته .

وكان يخفي الدراهم النقدية تحت اوراق النقد ويشتري بها خوفاً من اعوان السلطان[9] .

اقلاس صيرفي بسحب النقود من مصرفه

روى المبرد في كامله ما يلي : روى الاسدي انه افتقر رجل من الصيارفة بالحاح الناس في اخذ اموالهم التي كانت لديه ، وتعذر عليه ان يستوفي ما له من المال لدى الناس . فسأل جماعة من الجيران ان يسيروا معه الى رجل من قريش من اولاد اجوادهم ليسد من خلته ، فساروا فجلسوا في الصحن ثم اقبل على القوم فقال : انا والله ما نجحد عن الحق ولا نتدفق في الباطل ، وان لنا حقوقاً تشغل فضول اموالنا ، وما كل من افلس من الصيارفة احتملنا لجبره فقوموا يرحمكم الله . قال فابتدر القوم الابواب[10] .

وهذا مثال قديم لما يجري اليوم في المصارف اذا ازدحم الناس على اخذ ودائعهم منها .

الحوالات المالية على المصارف

كان الراهب بواص كاتباً ثم ترهب وانقطع في جبل حلوان بالديار المصرية ، وكان مثرياً عظيماً يدفع الديون عن الناس من

«١» عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٢٥٠ .
«٢» المستطرف للابشيهي ج ٢ ص ٧١ .
«٣» السؤدد مجلد اول ج ٣ ص ٢٥١ .
«٤» المستطرف ج ٣ ص ٧٠ .
«٥» ابن عساكر ج ٣ ص ٤٠ .
«٦» نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .
«٧» مجلة الاديب عدد تشرين الاول ١٩٤٤ ص ٣٦ من مقال لنا .
«٨» الحوادث الجامعة في المئة السابعة للفوطي من الخزانة التيمورية ١٣٨٣ ص ٣١٣ ذكره حبيب الزيات .
«٩» ابن بطوطة ج ٢ ص ١٥٥ .
«١٠» الكامل للمبرد ج ١ ص ١٦٩ .

جميع الوانهم ونحلهم ، وكان يدخل الحبوس فمن كان عليه دين حبس من اجله دفعه عنه واخرجه من حبسه . وكان الناس يعرفون منه هذه العادة، فكان البعض يتحيل عليه اذا رآه فيصحب احدهم معه اثنين يوهمان الراهب انهما من رسل الحاكم ثم يأخذان بضرب صاحبهما ويجذبانه فيشرع الرجل بالصياح والاستغاثة ويقول: « يا ابونا يا ابونا » فيقول الراهب ما باله فيقولان « عليه دين وتريد حبسه » فيقول « على كم » فيقولان على الفين او ثلاثة فيكتب اليه على شقفة او غيرها الى بعض الصيارف بذلك المبلغ فيقبضه منه وهكذا تنطلي حيلة هؤلاء الاشقياء على الراهب الزاهد«١١» .

« الشكات »

كان التجار في اسفارهم يتجنبون حمل النقود الا ما يلزمهم منها لقضاء حاجاتهم اليسيرة ابان سفرهم وكانت المبالغ الكبيرة التي يحتاجون اليها لشراء بضائعهم يأخذونها صكوكاً من المصارف ويذكر عن احد العلماء انه سافر الى الاندلس ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً«١٢» .

وكذلك ارسل الاخشيد صاحب مصر الى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين الف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة ايام كان مصروفاً«١٣» .

دفع الدراهم بالوزن شأن المصارف الكبيرة اليوم

وكانت دور الصرافة عندما تريد ان تدفع مبالغ كبيرة فانها تدفعها بالوزن، وكان لديها موازين في غاية الدقة والضبط فكانت الصيارف تزن عشرات وعشرات الالوف من الدنانير ولا يخل الميزان نقصاً او زيادة . ويجد القاري نبذاً كثيرة من هذه الاخبار في كتب الادب والتاريخ«١٤» .

صياغة السبائك الذهبية للتهريب

وعندما تشتد على الناس الازمات والحوادث الداهية او الحروب القاسية يجعلون من الذهب الذي بحوزتهم سبائك يحملونها معهم .

ومنهم من يسبك الذهب باشكال امتعة بيتية حتى يسهل تهريبها وحتى تخفى على رقابة الخفراء«١٥» .

مال البلاد يبقى في البلاد

صهيب بن سنان من ارمى العرب سهماً وكان ابوه عامل كسرى في البصرة وكانت منازل قومه في ارض الموصل ، فاغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً وهو غلام فاشتراه منهم احد بني كلب وقدم به مكة، فابتاعه عبدالله بن جدعان التيمي ثم اعتقه فاقام في مكة يحترف التجارة وربح مالاً وفيراً واراد ترك البلاد فمنعه الاهلون وقالوا : « جئتنا صعلوكاً حقيراً فلما كثر مالك اردت الرحيل » ؟ فقال ان تركت مالي تخلون سبيلي ؟ قالوا نعم . فترك لهم المال ورحل«١٦» .

التلاعب باسعار النقود

حصل في القرن الرابع للهجرة انكماش تجاري في الاسواق ودور الصرافين . ولما كان كل تاجر رجلاً رحالاً فان اثمان البضائع واسعار انواع النقود التي يجل عددها عن الحصر، كانت تختلف وتتعقد وتتشابك في ايدي المغامرين المهرة الى جميع البلاد، وكانت اسعارها تتراوح بين الصعود والهبوط حسب العرض والطلب . وحسب حاجة المستهلكين«١٧» .

منع التعامل بنقود اجنبية

حاولت حكومة بغداد ان ترفع شأن العملة البغدادية وتقوي سوقها، فامر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية والمغربية«١٨» . وامر الشهود الا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا اجارة ولا مداينة تذكر فيها الدنانير المغربية فعدل الناس عن هذه العملة«١٩» .

تحديد وزن شحن المراكب

وكانوا يدققون في وزن شحنات المراكب ولا يسمحون بتجاوز ما نصت عليه القوانين من ثقل الاوزان ، حتى يبعدوا عن المراكب خطر الغرق من اثقال الاحمال وعدم تعريضها للتلف والضياع وهذا ما كانوا يسمونه « وسق السلامة » .

وكانت رؤساء المراكب هي التي تتلقى هذه الاوامر وهي المسؤولة عن مخالفة القوانين وما ينتج عن عدم تطبيق الانظمة من الضرر للبحارة والتجار والمراكب ، ولهذا كانوا يلزمون رؤساء المراكب ان لا يحملوا اكثر من « وسق السلامة »«٢٠» .

النساء الباعة

ومما يعدونه اليوم من تقدم المرأة ورقيها هو نشاطها الاجتماعي ومزاولتها الاعمال كالرجال، ومنها انها صارت توظف في المحال التجارية

«١١» فوات الوفيات ج ١ ص ٨٥ .
«١٢» الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ٣١٨ .
«١٣» مصارع العشاق ص ١٠ .
«١٤» فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٢٢١ .
«١٥» تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .
«١٦» طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٦١ .
«١٧» كتاب الوزراء ص ٢٧٨ .
«١٨» الحضارة في القرن الرابع ج ٢ ص ٣١٨ .
«١٩» المنتظم لابن الجوزي ص ١٩١ .
«٢٠» خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٦٢ .

وتتولى امر حساباتها والبيع فيها .

وقد روى المقدسي في كلامه عن مدينة بيار من اعمال قومس ان السوق في الدور والباعة نسوان[21] . وقال ياقوت الحموي «بيار مدينة لطيفة . . اسواقهم بيوتهم وبياعوهم النساء»[22] وقد لاحظ ماركوبولو ان النساء في بلاد التتر يتعاطين كل انواع التجارة[23] .

(صنع في مدينة كذا)

وكانت البلاد المشهورة بصناعة ما تنقش او تنسج على بضائعها اسمها حتى يكون الشاري اميناً انه اشترى بضاعة حسنة الصنع من بلد شهيرة بتفوقها ومهارتها في صنع هذه البضائع المختصة بصناعتها[24] ومنها بصنا كانت تنسج اسمها على منسوجاتها[25] .

تقليد البضائع المشهورة وتزوير (ماركتها)

وكانت بعض المدن تقلد صنع او نقش او نسيج البضائع المصنوعة في بلد مشهور في هذه الصناعة . منها ان « بصنا » بالفتح ثم الكسر وتشديد النون وهي مدينة صغيرة وجميع رجالها ونسائها يغزلون الصوف وينسجون الانماط والستور البصنية ويكتبون عليها بصنى[26] وكانت بعض الثياب تعمل في بعض البلاد ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل الغش والتدليس[27] .

بيع وشراء دون حضور

من ارقى ما تفتخر به مدنية اليوم دلالة على رقي الاخلاق الرفيعة، هو انه في بعض بلدان اوربا الاسكندنافية كالسويد ونروج يوجد بعض محلات تجارية كبيرة ليس فيها الا عدد قليل من العمال لادارة المحلات وليس في اقسام هذه المخازن الكبرى باعة تبيع الحوائج وتقبض الاثمان . انما المشتري يدخل المحل ويرى حاجته ويستلمها بعد ان يدفع ثمنها المرقوم عليها دون ان يرى البائع ولا البائع يرى المشتري .

وقد كان يجري مثل ذلك قبل الف سنة فمثلا كان وراء سجلماسة من ارض المغرب وباقاصي خراسان يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة فيتركون عند كل متاع ما يخمنونه به من ثمن فاذا جاء

[21] المقدسي ص ٣٥٦
[22] ياقوت الحموي معجمه ج ٢ تحت كلمة بيار ص ٣١٧
[23] ماركوبولو ج ١ ص ٤
[24] الحضارة ترجمة ابي ريدة ج ٢ ص ٣٠٦
[25] معجم البلدان ج ٢ ص ٢١٠
[26] كتبها ياقوت «بصنا» كذا وكتبها «بصنى» كذا راجع اسم «بصنا»
[27] الاصطخري ص ٩٣

صاحب المتاع[28] اختار الذهب وترك المتاع، وان شاء اخذ متاعه وترك الذهب . وقد استلفت نظر « ربي بتاحيا » في العراق ان اهل العراق اهل لان يوثق بهم كل الثقة، فكان اذا جاء الى هناك تاجر وضع امتعته في بيت رجل من الناس ورجع فيحملون هذه الامتعة الى جميع الاسواق للبيع، فاذا دفع فيها ثمنها المقرر بيعت والا حملوها الى جميع السماسرة

المؤرخ ابن الاثير تاجر

لم يكن المؤرخ ابن الاثير وحده تاجراً بل كان والده قبله يتعاطى التجارة وله فيها حوادث كثيرة يرويها لنا ابنه المؤرخ . ومن اراد الاطلاع على شيء من هذه الحوادث فليراجع كامل التواريخ ففيه الشيء الكثير عن تجارة الوالد والولد[29] .

العلامات او (الماركات) على البضائع

لابد لكل تاجر اليوم من استعمال علامة او اشارة تكتب على غلافات بضائعه ليتمكن من معرفتها . وقد كان الاقدمون يستعملون الطريقة نفسها فمنهم من كان يكتب اسمه على صناديق او رزم البضائع، ومنهم من كان له علامة او اشارة فيكتب علامته على بضاعته حتى يستلمها حين وصولها بذاتها دون بضائع غيره[30] ووقع لوالد ابن الاثير المؤرخ قصة طريفة لخطأ وقع في علامته على بضاعته .

بيانات البضائع

البيان او الكشف او « التفسير » ثبت محتويات المراكب من البضائع لاخذ الضرائب عنها عند دخولها، اما الى دائرة المكوس واما عند تخطيها حدود دول متفرقة .

وردت البصرة سفن من بلاد الهند فارسل ابن الفرات من يأخذ المكس قال الرسول : « فانحدرت وفسرت السفن وقبضت حق بيت المال »[31] وقال ابن بطوطة : « امروا صاحب المركب ان يملي عليهم تفسيراً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها »[32]

نور الدين بيهم

(28) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٢ ذكره ابوريده في الجزء الثاني من حضارة الاسلام في القرن الرابع ص ٣٣٩
[29] كامل التواريخ لابن الاثير ص ٦١ طبعة باريس ١٨٨٧ مجلد ٢ ج ١ المطبعة الاهلية
[30] تاريخ ملوك الموصل ص ٢٨١ - ٢٨٢
[31] تاريخ بغداد لابن النجار باريس ٢١٣١ ص ٢٥ ذكره المشرق
[32] رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٥٦

تاريخ الصحافة في العراق

بقلم مهدي القزاز

★

كنت قد نشرت في السنة الثالثة من اعداد مجلة (الاديب) الزاهرة سلسلة بحوث ودراسات عن الادب في العراق وتطور الحركة الادبية فيه خلال السنوات الاخيرة ذكرت فيها بعض الادباء والشعراء الذين اثروا في النهضة الادبية في العراق وساهموا بلون من الوان الفكر والشعور ، وقد احدثت هذه البحوث في ذلك الوقت ضجة في الصحافة العراقية وفي بعض الصحف والمجلات المصرية واللبنانية والسورية وتناولها بعض الكتاب بالمديح والاطراء كما اقتبسها بعض الصحف العربية في الخارج وفي العراق وترجمت الى اللغة الايرانية ونشرت في جريدة (شفق سرخ) .

وكنت اهدف من وراء نشر تلك البحوث والدراسات الادبية تسجيل الفترة الثقافية التي مرت بالعراق خلال العشرة اعوام الاخيرة والبارزين من الشيوخ والشباب الذين كانوا عماد هذه الحركة وتعريف اخواننا المثقفين في البلاد العربية بالتيارات الادبية في العراق وجوه الثقافي الحديث والادباء والشعراء الذين لهم اثر بارز في الكتابة والنشر والتأليف لكي اقرب بهذه الواسطة بين بعضهم البعض واقوم بتعريف الانتاج الادبي العراقي الى ادباء البلاد العربية ...

ومن المعلوم ان الصحافة من اهم العوامل المساعدة في نمو الحياة الادبية وازدهارها وخلق ادباء منتجين ومبدعين ورأي عام مفكر واع وذوق سليم مرهف . فبقدر رقيها ومسايرتها للتطور واخلاصها للثقافة وتفانيها في نشر المعرفة وخدمة الجماهير ، وبقدر ما يكون لذهنية المشرفين على تحريرها واصدارها من نبوغ وذوق ونضج في شؤون الفكر وفهم الحياة العقلية ، بقدر ما لها ولهم من هذه الخصائص المميزة تتقدم البلاد في وعيها وثقافتها وطموحها ونضجها في السياسة والادب وخلق ادباء منتجين يغذون الحياة الذهنية وينشرون المعرفة ويلهبون الطموح ويثيرون اشتاتاً من الرغبات والاماني والاخيلة في نفوس الجيل الطالع من شباب الامة ...

ولا ينكر احد اثر صحافة اوربا واميركا في ثقافة الاوربيين والاميركيين وتوجيه الرأي العام وبروز الادباء والشعراء والمثقفين وذيوع صيتهم بين امم الدنيا . كذلك لا ينكر احد ما لصحافة مصر ولبنان وسورية من اثر في الادب والادباء والنهضة الفكرية وشعلة الثقافة وبث الوعي في نفوس الجماهير وفتح كوى مشرقة في اذهانهم تهديهم الى طريق الخير والحق والجمال ...

وفي حياة العراق الادبية ووثبته الفكرية ووعيه السياسي يبدو اثر الصحافة العراقية واضحاً في خلق الرأي العام العراقي وتطوره من حياة الجهل والجمود والفوضى الى حياة المعرفة واليقظة والاستقرار والتطلع الى آفاق واسعة يهدف للوصول اليها ليساهم في توجيه الثقافة العربية نحو القوة والكمال والمجد ...

كذلك كان اثرها عظيماً في خلق ادب وادباء وكتاب ومتذوقين كانت آثارهم وما تزال تلفت الانظار بما تحمل من طابع عراقي يمتاز عن غيره من آداب سائر البلاد العربية بالاشراق والسلاسة اللفظية وبما يحمل من طابع البداوة وشذى الصحراء ودقة تصويره للعواطف والاخيلة والاحاسيس ...

ولست بحاجة الى القول ان دراسة النشاط الصحفي وتطوره في العراق خلال (٧٧) عاماً من سنة (١٨٦٩) الى سنة (١٩٤٦) يكاد يكون في حقيقته دراسة شاملة لتاريخ العراق من النواحي السياسية والفكرية والاجتماعية، فليست الصحف الا مرآة تنعكس عليها اخلاق الشعوب وافكارها وآمالها وآلامها وتقاليدها وعاداتها،

فهي من هذه الناحية صورة صادقة ومرآة مجلوة للزمن الذي نعيش فيه ومرجع امين يسجل نصيب هـذا الزمن من نقص او كمال في مختلف جوانب الحياة وصورها . . .

وتعتبر دراسة هذا التاريخ دراسة لتاريخ العراق الحديث في اوضح صوره ، دراسة الرأي وتطوره ، والفكرة وتعددهـا والمزاج وتباينه ، ومصاحبة الكيان العراقي ممثلاً في نظم الحكم والحكومات المتعاقبة والجماعات الظاهرة والافراد المتفوقين منذ نشأ هذا الكيان الصحفي على عهد مدحت باشا الذي تولى شؤون العراق سنة (١٨٦٨) الى الان .

*

لقد كان العراق قبل ظهور الصحف فيه يعيش بحلقاته الادبية التي فتحها رجال الدين والعلم والادب والسياسة وذوو المكانة والوجاهة والرأي من العراقيين في دورهم وفي الجوامع والتكايا ، وكانت هذه الحلقات منتشرة في كل مكان ولها روادهـا الذين دأبوا على حضورها في كل يوم للاستمتاع بما يدور فيها من المناقشات الادبية والجدل السياسي والبحوث العلمية والمنطق والبلاغة والاراء الجديدة وسماع التعليقات المختلفة على الاشخاص النابهين والحوادث الجارية والمحتملة الوقوع . . .

فكان كل من ينظم قصيدة جديدة او يكتب بحثاً جديداً او يهدف الى توجيه أو اثارة شعور وطني او نشاط سياسي يجد في مثل هذه الحلقات مجاله الرحب وبغيته المطلوبة فتثار المناقشـات وتصطرع الاراء في تيار الجدل والنقد وتسرد الحوادث والاخبار في كل لون من الوان الادب والسياسة والفن وما يشغل الاذهان آنذاك من الامور سواء اكان محلياً او خارجياً . . .

وكانت هذه الحلقات تشتد فيها المنافسات ويحتدم النقـاش والنقد العنيف والتحزب كل الى الفكرة والشخص الذي يرى فيها وفيه اهلاً للنصرة والتأييد . وقد يشتد الجدل فيؤدي الى الخصام والقطيعة والهجاء ، فتتحزب كل حلقة لرأيها وتجمع حولهـا الانصار والاتباع للتأييد وبث الدعاوة والنيل من شخوص الحلقة المعادية لها وكثيراً ما كانت تقع عدة حلقات اجتماعاً عاماً للمناظرة في النثر والشعر يشتد فيها وطيس الجدل ويستغرق ليالي واسابيع . .

واصبحت هذه الحلقات آنذاك منبعاً خصباً للاخبار والحوادث منها تثار الاشاعات وتبرز الخصومـات وتقرر الثورات وتكتب المناهج وترسل الرسل وترتفع الصيحات والانتقـادات في وجوه الحاكمين مطالبة بالاصلاح او ثائرة على اوضاع معينة فيها هضم للحقوق العامة والحاق ضرر بصالح الجمهور .

وكان الولاة العثمانيون يهتمون بمثل هذه الحلقات ويترصدونها وذلك لخطرها على حكمهم القائم لانها كانت تبشر بالحرية وتبث في الشعب روح النقمة والثورة وتشعل النار الوطنية في النفوس فكان لهم جواسيسهم وعيونهم في اكثر هذه الحلقات يرفعون الى الولاة ما يدور فيها من اخبار وحوادث وما يتخذ من مقررات وخطط ومناهج . . .

فكانت هذه الحلقات بمثابة صحف سيارة وكان اثرها - كما ذكرنا - لا يقل عن اثر صحافة اليوم في سرعة نقل الاخبار المحلية واذاعتها علاوة على ما يثار فيها من جدل سياسي وتحليل لاهم ما يشغل الاذهان من الوان التفكير والشعور والانتفاضات النفسية والخلجات الذهنية . وكانت بعض صحف مصر ولبنان وتركيا تتسرب الى العراق بين فترات متقطعة ، ولسبب شيوع الامية بين العامة آنذاك كانت هذه الحلقات تقوم باذاعة الاخبار والمقالات مع التعليقات والشروح المطلوبة التي تقربهـا الى اذهان العامة . وربما حصلت المناقشة والجدل والتحليل لبعض ما يكتب في هذه الصحف من افكار وآراء في مختلف شؤون الحياة والفكر . . .

وقد كانت مدينة النجف اولى المدن العراقية التي ازدهرت فيها هذه الحلقات والاجتماعات التي كانت لها اهميتها وخطورتهـا لكونها محلاً دينياً مقدساً يسكن فيه كبار العلماء والمجتهدين وطلاب العلم والادب والمعرفة، وهي منبع الثورات الوطنية ومركز القيادة منها شعت اولى ومضات المعرفة وكانت ملجأ احرار الفكر ضمت بين جوانحها جماعات من اخواننا اللبنانيين الذين امهـا للدراسة والاجتهاد وخاصة من (جبل عامل) فلا يزال للان المئات منهم يعيشون بيننا حيث اكتسب بعضهم الجنسية العراقية واصبحت له مع العراقيين اوشاج وانساب ومصالح ، امـا الباقون فسافروا وهم الان من المجلين في حلبة الاجتهاد والعلم والدين في وطنهم . . .

ولا تزال النجف وبغداد تحتفظان حتى الآن وبعد مرور ما يقارب القرن بكثير من آثار ذلك العهد سواء اكان شعراً او نثراً مما كان يلقى في حلقاتها التي كانت منتشرة في جميع الاماكن والجهات وهذا الشعر والنثر يحتل تاريخ تلك الفترة الذهنية في حياة العراق السياسية والادبية وشعورهم تجاه الحوادث والاشخاص والمشكلات العقلية والانتفاضات المحلية وهذه الثروة من الشعر والنثر لا تزال لهـا طلاوتها وعذوبتها لما فيها من الوان الاحاسيس ووثبـات الشعور

وومضات الاذهان والتيارات التي كانت تتحسس بها النفوس...

*

عاش العراق بهذه (الحلقات) فترة من الزمن كان يستعيض فيها عن حرمانه من الصحف السيارة بحضور المتعلمين من ابنائه في هذه الاجتماعات فيتسقطون الاخبار ويذيعونها على العامة ويستمعون الى المجادلات والمناقشات في السياسة والادب والاجتماع ويغذون افكارهم بما يثار من الآراء او يخلق من الافكار وما يستجد من القضايا التي كانت تشغل الاذهان انذاك. كما كانت هذه الحلقات لا تخلو من مجددين ورجعيين سجلت مناقشاتهم الوانا من غرر الشعر والنثر في النقد والهجاء...

وكان العراق في هذه الفترة يرزح تحت النير وكان ضعف الولاة وتعسفهم قد ولد في النهاية يقظة في الفكر والشعور في جميع البلاد العربية التي كانت تعيش تحت الحكم العثماني تفنن الخيال العربي خلالها في التعبير عن هواجس النفوس الطامحة الى مجاراة الامم الناهضة الراغبة في التخلص من عوامل الضعف والانحلال، فكان لا بد ان يغلي المرجل في العراق وتعصف في نفوس ابنائه بوادر الغضب لما كانوا يقاسونه من اهمال في مختلف شؤون حياتهم فاخذ المفكرون في العراق لا يكتفون باداء نقمتهم ونفورهم في هذه (الحلقات) بل اخذ بعضهم يكتب في بعض الصحف العربية الحرة التي كانت تصدر في الخارج مطالبين بالاصلاح ومصورين بشعرهم او نثرهم ما يختلج في نفوس الشعب العراقي من عوامل النقمة والغضب تجاه الحكم القائم ودكتاتورية الوالي التي فاقت حدودها...

وفي هذه الفترة ايضاً كانت السلطنة العثمانية قد شعرت بالخلل الذي طرأ على ادارتها في الولايات وموجات النقمة المنبعثة في كل مكان منادية بسوء تصرف الولاة والحكام فارادت ان تقوم بشيء من الاصلاح تهدىء به ثائرة النفوس المتحفزة للثورة فنقلت والي بغداد آنذاك المسمى (تقي الدين باشا) وعينت بدله مدحت باشا الملقب بأبي الاحرار والياً على بغداد وذلك في شهر نيسان سنة ١٨٦٨ لكي يقوم باعمال اصلاحية تبعث في الشعب العراقي روح الطمأنينة والهدوء.

وقد قام هذا الوالي فعلاً خلال مدة ولايته على العراق التي لم تتجاوز الثلاث سنوات باعمال اصلاحية وعمرانية هامة وبتحسين الكثير من الشؤون الاخرى. فقد كان رجل اصلاح وعمل ومشاريع. وفي عهده صدرت اول جريدة عراقية رسمية اسمها: (الزوراء) وذلك بتاريخ ١٥ حزيران سنة ١٨٦٩. ومن هذا التاريخ يبدأ تاريخ الصحافه في العراق... وقد وجدت المطبعة في العراق قبل وجود الصحافة وكانت تطبع فيها مناشير الوالي واوامره والاعمال التجارية وما الى ذلك من الاشياء التي تمت الى الحياة العملية الا انها بعيدة عن الارتباط بالصحافة والصحف...

الا ان الباحث العراقي (يعقوب سركيس) نشر في مجلة (عالم الغد) البغدادية في العدد (٢٢) من سنتها الاولى بحثاً زعم فيه ان هناك صحيفة عراقيـة عرفت باسم (جورنال العراق) اسسها الوالي داود باشا الكرجي وزير بغداد وذلك في سنة (١٨١٦ م) وكانت تطبع في مطبعة حجرية باللغتين العربية والتركية وكانت تنشر انباء العراق واخبار السلطنة العثمانية ووقائع القبائل وقوانين البلاد واوامر الوالي وشؤون الموظفين والاخبار الخارجية. وكانت توزع على قواد الجيش وكبار اعيان المدينة واشراف بغداد وتعلق على جدران دار الامارة نسخ منها ليطلع عليها الجمهور...

ومع ان هـذه الصحيفة لم يعثر على نسخة منهـا الا ان بعض الرحالين الاوروبيين اشاروا اليهـا في كتبهم ومنهم: (غروفز) و(فريزر) و(تايلر) و(ريتش) فاذا صح هذا الزعم وثبت تكون جريدة (جورنال العراق) قـد سبقت جريـدة (الوقائع المصرية) باثني عشرة سنة، ويكون العراق قـد سبق جميع البلاد العربية بانشاء اول صحيفة فيه سنة ١٨١٦

ولما كان هـذا الزعم لم يثبت حتى الآن فاننا نعتبر ان جريدة (الزوراء) التي صدرت في (١٥) حزيران سنة ١٨٦٩ هي اول صحيفة رسمية صدرت في العراق وبها يؤرخ نشأة الصحافة العراقية، وعلى هذا الاساس نبدأ بحثنا القادم عن (تاريخ الصحافة العراقية وتطورها في العهد العثماني).

بغداد مهدي القزاز

عناصر الأدب النفسي

بقلم ابو مدين الشافعي

ماجستير في علم النفس من جامعة فؤاد الاول

سكرتير تحرير مجلة علم النفس

★

لقد أشرت في المقال السابق الى الاسس الجسمية التي يقوم عليهـا الشعور الفني على العموم وقد انتهيت الى صلة هذا الشعور بالميل الى التعبير واشراك الآخرين فيما يجول بانفسنـا من عواطف — ولا أقصد مما تقدم ان كل شعور فني و كل تعبير ادبي وليد تأثيرات جسمية فان هناك الحالات النفسية البحتة التي يرجع اليها الفضل الاكبر في ظهور ادق التعبيرات الادبية، وان كانت هـذه الحالات النفسية البحتة تقوم في بعض الاحيان على تأثيرات اجتماعية .

ليس الادب الفني غير الادب الذي يجد طرقـاً جديـدة ودقيقة للتعبير عن حالات شعورية صادقة . ويبتدىء الاستعداد الادبي بوجود الشعور الجديد والحالة النفسية النادرة وينتهي بايجاد الاسلوب الجديد المناسب للفكرة الجديدة . وقد يقال ان اغلب العواطف التي يتداولهـا الادباء متشابهة ولا يمكن التحدث عن الفكرة الجديدة في الادب . ويمكن الرد عـلى هذا الاعتراض بملاحظة بسيطة . في قدرة كل انسان ان يقارن بين الافراد الذين يعيشون حوله واختلافهم في حالاتهم الشعورية فلا شك في ان البعض أغنى من البعض الاخر في كمية الحالات الشعورية التي تمر على ذهنه وفي قيمة هذه الحالات من ناحية العمق والجدة .

ليس في وسع اي شخص ان يقف عـلى ادق الصور لادراك علاقات توحي بنوع خاص من الشعور . فاغلب الناس يمرون بالمناظر الطبيعية الساحرة دون ان يجدوا في ذلك اي شعور بالجمال . وقد يشعر البعض بالجمال ولكن العبارة تخونه فالفن هـو صلة الفكرة بشكلها المعبر عنها في الخارج . وقد ترجع قيمة التعبير الى قـدرة الشخص في ايجاد شكل لشعور عام يشعر به كل شخص ولم يفكر احد في التعبير عنه ويجد كل منا لذة خاصة عندما يقف على تعبير لما يشعر به في داخله ولم يفكر قط في التعبير عنه .

وكل براعة الاديب ترجع الى الرمز اللفظي الذي يحمله معنى من المعاني النفسية القريبة او المألوفة . وليس من الضروري ان يكون الاديب من الطبقة التي اقتبست فن الكلام من الكتب واتقنت دراسة الادب بل الاديب الحقيقي هو الاديب الذي زود بموهبة فطرية تساعده على خلق الرموز اللائقة للتعبير عن ادق المعاني . ويشترط دائماً في الاديب ان يكون ذا نفس قوية تستطيع التغلب على كل المشاكل الجسمية والاجتماعية ولذلك نجد الاديب رجل الكفاح المقاوم لشتى التيارات القوية التي تحاول ان تقف في سبيله

وقد لاحظ جورج دوماس في بحثه القيم عن الرمزية ان الشخص يلجأ دائماً الى استعمال الرمز عندما يجد امامه عائقاً يعوقه عن التعبير المباشر . وتوجد طرق كثيرة لظهور الرمزية منها الضغط العاطفي . وقد كانت المرأة في كل مجتمع منبع الرمزية سواء بكلامهـا او

بالكلام الموجه اليها ولذلك تركت حياة الصالونات آثاراً كبيرة في الادب الفرنسي في القرن السابع عشر. وذلك لان المرأة بطبعها تعلم حق العلم ظاهرة نفسية خفية وهي تلاشي قيمة المعنى المصرح به تصريحاً تاماً، فتصل الى الغرض بسهولة كلما لجأت الى طريق الرمز. وهناك حقائق لا تستطيع المرأة تأديتها مباشرة فتبحث عن طريق ملتو، فكثيراً ما يأتي المعنى بالتشبيه او المقارنة او اثارة الفكرة المطلوبة بتداعي المعاني.

يتحاشى الشخص الذي يجب باخلاص ان يصرح بحبه ولكنه يكون في حاجة الى اشعار الطرف الثاني بشعوره، وكذلك فيما يتعلق بكل شعور يدل على الاحترام والخضوع. وترانا دائماً نشك في صدق الشعور الذي يعبر تعبيراً صريحاً. ولو تأملنا اهم القطع الادبية النفسية وجدنا فيها ابتعاداً مقصوداً عن التصريح بالفكرة الرئيسية. ويلجأ الاديب الى مختلف الطرق ليؤدي قصده بعبارات تحوم حوله ولا تكشف عنه، وكلما كثرت الحواجز التي تمنع الشخص عن التعبير الصريح تبدو «الرمزية». ويظهر لنا من دراسة الرمزية في الادب ان كل تعبير ادبي هو خاضع لعوامل نفسية من جهة وعوامل اجتماعية من جهة اخرى.

ويمكننا ان نستعين بهذه الحقائق في دراساتنا لتاريخ الادب، فلا بد من مراعاة الحالات النفسية الملائمة لسن الشخص ولا بد كذلك من مراعاة المجتمع الذي كان يعيش فيه الاديب. ونذكر على سبيل المثال القصائد الغرامية التي قالها الشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي التي مدح فيها ذكاء امرأة عالمة تغنى طويلاً بجمالها وبالصلة الروحية التي كانت تربطه بها وكان قد تعرف بها في زيارته الاولى لمكة ورجع اليها مرة ثانية، فهذه المجموعة من القصائد تساعدنا على فهم نواح كثيرة في هذه الشخصية الغريبة. فهي اولا تبين اتجاهه في مزج اعجابه بالجمال الجسمي والجمال الروحي. وبتتبع علمي قائم على اصول التحليل النفسي نجد في وصفه نزعة بوهيمية تمتاز بالفطرة والبساطة — ولم يستطع المؤرخون الوقوف على اسم هذه المرأة والاهتداء الى طريقة اتصال الشيخ بها. وشدة الحب الذي عبر عنه ابن عربي بكل صراحة تدفع الى الشك بحقيقة وجود هذه المرأة التي جمعت بين كل الاوصاف التي يهيم بها الشيخ الاكبر، ويدفع بكان الحب الى الشك ايضاً في حقيقة هذا الامر — ولهذا يمكننا ان نعتقد ان ابن عربي كان مدفوعاً بضغط الحرمان الى التخيل.

وتظهر قيمة الوقوف على الاحوال النفسية في دراسة القصة التي تحتاج الى قدرة كبيرة على الخلق — ولوحظ في تاريخ الادب ان الكثير من مؤلفي القصة كانوا ذوي تركيب جسمي خاص يبعث على الشعور بالحرمان ويلجأ الشخص الى التعويض وتلك حالة نفسية تظهر بوضوح في سن الشباب اذ يلجأ الفتى او الفتاة عند الحرمان الجنسي او العاطفي الى التعويض بالتخيل.

ومن اهم ما يجب التسلح به لدراسة الادب هو الوقوف على فكرة الدورة النفسية لنتتبع كل الاحوال الشعورية التي تعتري الشاعر — وبذلك نستطيع التعمق في فهم الشاعر والوصول الى تقمص شعوره الذي يريد التعبير عنه — والدورة النفسية ميزان دقيق يمكننا ان نميز به بين الشعراء لنعرف القادر منهم على ادراك الحالات الشعورية اولا وعلى التعبير عنها ثانياً. ونرى ان بعض الشعراء لا يأتون بالدورة كلها ويبدأون وصف حالة هي نتيجة لحالة اخرى لم يدركوها او لم يستطيعوا التعبير عنها — واما البعض الآخر فانه لا يصل الى نهاية الحالات التي يقتضيها الموقف. وقد استطاع المعري ان يحافظ على نفس شاعريته في قصائد كثيرة وكذلك المتنبي.

واعتقد ان دراسة الشعر بدون النظر الى فكرة الدورة النفسية عند الشاعر وموقفه منها تكون دراسة ناقصة — لان المطلوب من كل دراسة ادبية هو حمل الدارس على الاتصال النفسي بالاديب لرفع شعوره ويزيد في احساسه ويعوده على ادراك مشاعر دقيقة ويعود شعوره على مرونة الانتقال من حالة نفسية الى حالة اخرى مختلفة عنها، وان كانت شبيهة بها في الظاهر — فاننا ان تأملنا في كل شعر يعبر عن انفعالات شديدة باخلاص ودقة نخرج بفائدة كبرى تظهر في ترقية الشعور الفني لمن يتصل به اتصالا نفسياً يحاول تتبعه في مختلف مراحله الشعورية.

القاهرة — ابو مدين الشافعي

الجوائز الكبرى في سباق الخيل — بيروت

خلال شهر نوار ١٩٤٦

●

جائزة يوسف فرعون	—	٥ نوار
جائزة الفرد سرسق	—	١٢ نوار
جائزة بيروت	—	١٩ نوار
جائزة البرامكة	—	٢٦ نوار

الوراثـة والبيئـة

بقلم كمال الغالي

✶

لقد ادرك الناس منذ القدم ان نمو الفرد والتطور الاجتماعي يتوقفـان على تفاعل طائفتين من العوامل . عوامل البيئه وعـامل الوراثة . وقد حاولوا ان يحددوا اي العاملين أبعد اثراً في مفعوله . وفي العصور القديمة كان العلماء والفلاسفة يؤكدون اثر البيئة وحدها في تطور الفرد والمجتمع، فكان ابو قراط يرجع كثيراً من الامراض الى عامل الجو والمناخ، وكانت الاساطير اليونانية القديمة تنسب سواد لون الزنوج الى شدة حرارة الجو في بلادهم . وما وقف القدماء عند هذا الحد، بل انهم ذهبوا الى انه من الممكن تحويل نوع مـن الحيوان او النبات اذا تغيرت ظروف البيئة وحدها .

وفي اوربا نشأت نظريات قال بها بعض العلماء الانثروبولوجيين ومؤداها ان العوامل الجغرافية — الطبيعية وحدها هي التي تحدد الصفات الاساسية لمدنية اي مجتمع من المجتمعات ، الى ان ثار عليهم عالمانهما Turgo و Holbach فاثبتا انبيئة معينة لا تخلق مدنية معينة بدليل ان حضارات متشابهة قد تنشأ في بيئات متباينة ، وان حضارات متنوعة قد تنشأ في بيئات متشابهة فالعوامل البيئية وحدها في نظر Turgo ، عاجزة عن تفسير نشوء المدنية .

واذا انتقلنا الى علم النفس الجنائي نجد الخلاف ذاته قائماً بين العلماء في تعليل اسباب الاجرام فقد كان Sambroso يقول ان المجرم مجرم لانه ولد مجرماً ، ولانه لا يستطيع اخفاء طبيعته . وعلى اساس الوراثة قامت مذاهب عدة في تعليل الاجرام ، منها نظرية الارتداد الوراثي ، وهي تقول بأن المجرم يشترك مع الانسـان البدائي بمجموعة من الخصائص النفسية منها الاندفاع وشدة الانفعال وحب الكسل مما يجعله عاجزاً عن تعديل نفسه ومتطلبات المدنية، فيميل الى الاجرام . . وعلى النقيض مما سبق يقول Coddard ان المجرم لا يولد مجرماً انما هو يدفع الى الاجرام . ويرى آخرون ان عامل الوراثة في الاجرام اقل اهمية من عوامل البيئة الاجتماعية .

فالطفل يعتمد في اشباع حاجاته على افراد اسرته ، وجو الاسرة يكاد يكون العامل الوحيد ذا التأثير المتصل على الفرد خلال السنوات الاولى من حياته تلك السنوات التي يكون الانسان فيها سريع التأثر بأي عامل يتعرض له او يحيط به . والعائلات المختطة هي اهم المصادر لكثرة الاجرام . ويؤيد آخرون آراءهم بالاحصائيات فيقولون انه تبين لهم من دراسة عدد كبير من المجرمين الاحداث ان (٨٧ ٪) منهم قد اقدموا على الاجرام نتيجة لتأثير اصدقائهم فيهم .

وقد بلغ الخلاف اشده بين علماء النفس في مسألة درجة تأثير كل من — الوراثة والبيئة في قابليات الفرد واستعداداته . وقد اصطدم العلماء بصعوبات كبيرة تجعل من المتعذر تحديد الحصة التي تعود الى كل من الوراثة والبيئة في نمو شخصية الفرد وتطورها . اذ ان الظروف التي تتكون فيها النطفة والحمل هي ظروف معقدة وغير معروفة بدقة ، وهي كذلك تختلف عند الوالدين باختلاف عهود حياتهما ، ولو كانت هذه الظروف ثابتة لكان جميع الاطفال الذين ينتمون الى عائلة واحدة متماثلين الى حد كبير ، وهذا يندر ان يقع فعلا . يضاف الى ذلك ان تأثيرات الاجداد تفعل مفعولها الى جانب اثر الوالدين ، وان التأثير النسبي الذي يؤثره الاب او الام يختلف بالنسبة لكل طفل . فهذا الطفل اكثر شبهاً بأبيه ، بينما الاخر اقرب الى امه ثم ان قابليات الافراد لا تظهر الا بعد بلوغ الطفل سناً معينة . وهو في هذه الاثناء يكون قد خضع لا للوراثة وحدها بل وللبيئة الى حد كبير . فالعوامل الوراثية وان تحددت عند تكون النطفة الا انها تؤثر في تطور الفرد طيلة حياته، وكذلك البيئة فان تأثيرها يبدأ منذ تكون نطفة الجنين ، اذ ان الجنين يتأثر من درجة الحرارة او نوع الغذاء الذي تتناوله الام مثلا يؤثر في الافرازات الكيمياوية التي تختلط بالدم وتؤثر في تغذية الجنين ونموه ومفعول البيئة الذي يتعرض له الانسان اثناء حيـاته يكون ذا تأثير فيه في السنوات الاولى من حياته اكثر مما يكون

بعدها ، اذ متى وصل الانسان الى درجة معينة يصبح اقل استعداداً للتأثر بالعوامل النفسية المحيطة به .

يضاف الى هذا ان البيئة التي عاش فيها الأب تختلف عن تلك التي يتأثر بها الطفل ، وبنتيجة ذلك تظهر عند الطفل قابليات كانت كامنة عند الوالدين . وبعكس ذلك فان قابليات تكون قد ظهرت عند الوالدين تبقى كامنة عند الطفل . وقد تكون بعض هذه القابليات مركبة Composées اي ان ظهورها يستلزم توفر عناصر متعددة ، وهذه اذا وجدت عند الاب قد تنقسم عند الابن . ونفسر هذا بمثال . فليكون المرء خطيباً كبيراً او كاتباً عظيماً يجب ان تتوفر عنده الى جانب حدة الذكاء قدرة كبيرة على الكتابة او التكلم بطلاقة ، فاذا كانت القدرة على التكلم ضعيفة عند ابن الخطيب فانه لن يستطيع ان يكون ، مهما بلغت حدة ذكائه ، خطيباً بارزاً . واذا وجدت عنده القدرة على التكلم وحدها واعوزه الذكاء فانه قد يكون ثرثاراً كبيراً ولكنه لن يكون خطيباً كبيراً .

من كل هذا يتضح ان الموضوع تكتنفه صعوبات جمة تجعل من المتعذر فصل عوامل الوراثة عن العوامل البيئية لتقدير اهمية كل من العاملين ، اذ انهما يعملان دائماً ويتفاعلان باستمرار . ولكن العلماء ابوا الا ان يحددوا نصيب كل من العاملين بالنسبة للآخر ، فنرى الاستاذ Odin في دراسته للعوامل التي ساهمت في تكوين الادباء الفرنسيين المعاصرين ينتقص من اهمية الوراثة اذ يقول (انه في بعض الحالات ، بل في اغلبها ، يستحيل ان نكشف عن اي اثر للوراثة في خلق هؤلاء الادباء ، مما يدل بوضوح وجلاء على انه ليس للوراثة الا اثر ضئيل محدود النطاق) . فالبيئة هي في نظره العامل الفعال في خلق الادباء ، وهو يؤكد بصورة خاصة على اهمية التربية في هذا الصدد . وقد بلغ بعض العلماء حداً عظيماً من التطرف ، اذ قال احدهم (اذا اعطيتني طفلا منذ ولادته ومنحتني رقابة تامة عليه فان باستطاعتي ان اجعل منه ما أشاء) ولكن من الواضح انها نظرية خاطئة ، اذ ان اثر التربية معناه تكوين رجاع خاصة عند الفرد ، وهذه النظرية تفترض ان رجاع جميع الاطفال متماثلة اذا تشابه المنبه ، مع انه من المسلم به انه قلما يوجد في الكون اثنان عندهما رجاع متماثلة لمنبه واحد .

وعلى النقيض مما ذكرنا سابقاً ، يقول الاستاذ Bourdon انه يلاحظ عند الذين يعنون بمسألة الوراثة والبيئة في العصر الحديث واهمية كل منهما ، يلاحظ عندهم ميلا واضحاً للاعتراف للوراثة باثر كبير . وقد درس العالم Galton موضوع القابليات العقلية ، ولخص النتائج التي توصل اليها فأكد ان الرجال الموهوبين ينجحون في الحياة دائماً مهما كانت العقبات التي تقيمها البيئة سداً في طريقهم صعبة التذليل ويقول Candolle (ان العلماء البارزين ينشأون في طوائف من السكان اهمل كثير من افرادها الاعمال اليدوية وانصرفوا الى الاشغال العقلية مدة جيل او اكثر ، وهم يكثرون في عائلات كان افرادها سابقاً من العلماء) ومن الواضح ان الوراثة لا تمنح الرجل ملكات خاصة عجيبة ، ولكنها تهبه مجموعة من الصفات الاخلاقية والعقلية يمكن استعمالها حسب ظروف كل فرد وقوة ارادته لدراسة العلوم والنبوغ فيها . ويقول العلامة Ribot ان جميع اشكال النشاط العقلي قابلة لان تنتقل بالوراثة ، وان هناك اسباباً تدعونا الى افتراض ان للوراثة الاثر الاهم في تكوين شخصيات الافراد . ويؤيده في هذا الاستاذ Conklin فهو يلاحظ ان الدراسات الحديثة في علم الوراثة تظهر بجلاء ووضوح الاهمية العظمى التي للوراثة ، ويؤكد Poyer ان جميع الملاحظات التي جمعت حتى الآن تميل الى اثبات قوة فعالية الوراثة ، اذا ما قارناها بالبيئة . ويسلم Ellis بالاراء السابقة ولكنه يلاحظ فوق ذلك ان هناك مؤثرات بيئية اخرى فعالة ، تعمل عملها الى جانب الوراثة منها المناخ والحياة الصناعية او الزراعية والترف او خشونة العيش . فلنفرض اننا اخذنا طفلين من عائلة واحدة ونشأ احدهما في محيط صناعي تكثر فيه المدارس المتنوعة بينما بقي الاخر في بيئة زراعية فان الاول يحتمل ان يصبح رجلا عظيما ، بينما سيبقى الاخر بكل تأكيد فلاحاً بسيطاً .

يتضح لنا مما سبق ان الوراثة ليست وحدها التي تقرر سلوك الانسان ، وكذلك البيئة فانها لا تنفرد بهذا الامر ايضا . وقد حاول بعض العلماء ان يوفقوا بين النظريات التي تقوم على اساس الوراثة والنظريات الاخرى التي ترجح جانب البيئة ، ويجمعوا بينها في نظرية واحدة جامعة شاملة فقالوا ان الوراثة تضع الحدود التي لا يستطيع الفرد ان يتعداها مهما كانت ظروفه ، بينما تقرر البيئة مدى استفادة الفرد من هذه الحدود والقوى الكامنة في كيانه فقد يرث الانسان ذكاء خارقا ، ولكن تطور هذا الذكاء وتوجيهه يتوقف على بيئة الفرد ، فان وجد في بيئة منحطة مثلا فقد يتوجه بذكائه الى الاجرام او يبقى عديم الانتاج او النفع ، بينما لو عاش في بيئة مناسبة لاصبح مواطناً صالحاً وعضواً عاملا في سبيل الخير والمجتمع . وبعبارة اخرى فمهمة البيئة هي ان تظهر ما بالوراثة من امكانيات كامنة ، وان تعمل على حسن استثمار ذلك الميراث الموهوب .

القاهرة — كمال الغالي



ملحمة هوميروس

نقلتها عن الانكليزية السيدة عنبرة سلام الخالدي- ٣٨٥ صفحة- المطبعة العصرية - القدس -

لا اقول شيئاً جديداً اذا قلت ان الاغريق لم يكونوا اساتذة العالم في المدنية فحسب : بل كانوا اساتذته في كافة العلوم والفنون التي كانت العوامل الاساسية في تكوين هذه المدنية . وليس بين المثقفين من يجهل ان مناهل الحكمة والفلسفة والشعر قد فاضت ينابيعها اول ما فاضت من بلاد اليونان لتغمر فيما بعد العالم بآثارها وفوائدها الجلى . لقد كانوا ارباب الفكر الانساني كما كانوا ايضاً اصحاب الخيال المبدع الجوال الذي اخترق حرمة السماوات والافلاك . فهم المرشدون الذين هدوا الانسان سبيل الفكر فاخذ يتساءل عن كنه الاسرار التي تحيط به من كل جانب ، ويحاول ان يفسر الحقيقة تارة في تلك العناصر المختلفة التي يتبينها في الطبيعة مثل التراب والهواء والنار والماء، وتارة اخرى يبحث عنها في هذه المعنوية التي تزخر بين جنبيه بمختلف الاحساسات وشتى الانفعالات والتي تدعى نفساً ، وكلمة سقراط : اعرف نفسك بنفسك ، كانت القاعدة التي حولت مجرى الفلسفة من ميتافيزيقية الى اخلاقية ، بانزالها اياها من السماء الى الارض . حتى جاء ارسطو- وهو سيد المنطق بلا منازع خلال عدة قرون وواضع اصول النقد وتاريخ الآداب- فابتدع فلسفة سيطرت تعاليمها في اوروبا الدينية طوال القرون الوسطى وبقيت تعتبر قاعدة اساسية للتفكير حتى العصر السادس عشر عصر النهضة في اوروبا ، والتحرر من ربقة كل تقليد ، حيث قام ديكارت بتهديمه خاصة الناحية الميتافيزيقية منها التي كانت سبباً لاحاطتها بهالة من التقديس ، والاستبدال بها فلسفة اساسها العقل وحده . لهذا دعي مذهبه الفلسفي فيما بعد « بالراسيوناليسم » نسبة الى العقل . هذا من الناحية الفلسفية . أما من الناحية الادبية والفنية فكما ان العرب قد سموا ارسطو بالمعلم الاول- وقد فاتني ان اذكر في صدد حديثي عنه ، انه في طليعة من آمنوا بوجود هوميروس . وقد أرخ نظم الالياذة بمائة واربعين عاماً بعد حروب طروادة - فكذلك ايضاً كان لادب الاغريق اثره الفعال في الآداب العالمية على اختلاف انواعها والوانها ، اذ ان الادباء قد تعلموا في مختلف الاجيال، على هؤلاء الانسانيين كيفية ادراك انسانية كل انسان ، وقبسوا منهم شتى فنون الابداع : ولست ادري اين قرأت هذه الجملة التي قالها احد الادباء، واظنه جيرودو في صدد كلامه عن اثر ادب اليونان وخاصة الياذة هوميروس في بقية الآداب ، قال :

« ان ادباء العالم قاطبة لمدينون الى هوميروس ، لانهم كانوا وما زالوا يقتاتون من فتات مائدته . » ولقد ظل قراء العربية الى عهد غير بعيد ، في حرمان من الاستمتاع بهذه الرائعة الفنية في العربية حتى ترجمها شعراً العلامة سليمان البستاني . ولكن قراءها حتى بعد هذه الترجمة الشعرية ، بقي عددهم محدوداً ، اذ لا يتسنى لكل قارىء ان يطالع الشعر . والعمل الضخم قامت به السيدة الاديبة عنبرة سلام الخالدي بنقلها الالياذة عن الانكليزية نثراً الى العربية وهو سيتيح دون شك لقراء العربية ان يستمتعوا بها ويتذوقوا طعم لذتها وحلاوتها، ولو ان الترجمة مختصرة بعض الشيء . وملحمة الالياذة هي كما يعلم الجميع ، مجموعة من الاناشيد ضمنها هوميروس وصف الحرب التي وقعت بين الطرواديين والاغريق ويحدد تاريخها بالضبط - فهو يتراوح بين ال ١٠٠٠ وال ١٢٠٠ قبل الميلاد - استغرقت عشر سنوات وانتهت باستيلاء الاغريق على مدينة طروادة . ويعود سبب هذه الحرب الى ان باريس ابن ملك طروادة واخا هكتور الاصغر ، قد اختطف هيلانة الحسناء زوجة مانيلا ملك اسبارطة وحملها معه الى طروادة- فاوغر هذا الامر صدر مانيلا عليه حقداً وكراهية ، وحمله على ان يهب مع اخيه اغاممنون وبقية الزعماء، وعلى رأسهم اخيل الباسل ، ليشن على الطرواديين حرب انتقام لقي جميع الابطال حتفهم خلالها .

ولقد اجادت المترجمة نقل الملحمة الخالدة في عربية نقية وخاصة في القسم الثاني والاخير منها حيث سلست لها قيادة الترجمة واصبحت طواعية في يدها - واخص بالذكر من بين الفصول ، فصل مقتل هكتور البطل الطروادي العظيم : فان المترجمة قد ابدعت في ترجمة هذا الفصل ابداعاً يخيل للقارىء معه ، انها قد امتزجت

بالموضوع الى حد استطاعت عنده ان تقبض على زمامه ، وان تسير في ترجمته سيراً طبيعياً — وكان قد استعصى عليها قليلاً في الفصول الاولى التي بدا فيها شيء من الجفاء والتكلف .

ولعل ابداع هوميروس في هذا الفصل الذي ضمنه وصف مقتل هكتور احد الابطال القلائل الذين انجبتهم الانسانية في ميادين الحروب . ثم تحليقه في اعالي سموات الفن حتى الاوج منه ، قد سرت عدواه الى المترجمة فانتقلت الى هذه السموات ، وسرحت خيالها في عوالمها وافلاكها ، فاستطاعت عندذاك ان تحلق وان تشرف على الترجمة من عليا هذا التحليق . ولا غرو في ذلك فان هوميروس قد كشف في هذا الفصل عن نفس لعلها من بين النفوس انبلها واسماها وصور هذه النفس التي لا يخامر الظنون شك بشدة بأسها وبسالتها وقد تجاذبها عاملان عنيفان على تباينهما : الخوف والفرق من بطش أخيل من ناحية ، والظفر بالعدو وما يبعث هذا الاسر من نشوة في النفس . غير ان احساس الخوف هو الذي تغلب على نشوة الظفر ، اذ ما كاد « آخيل يقترب ملوحاً برمحه الفلياني الكبير فوق كتفه اليمنى ، وكان بريق سلاحه كلهيب النار او كالشمس المشرقة ، حتى هلع قلب هكتور لمرآه ، ولم يجرؤ على البقاء في مكانه ، فأسرع هارباً من الابواب ، واسرع آخيل يطارده كما يطارد الصقر .. الخ » .

وانا ان انتهي من سرد الامثلة لو اوردت في هذه العجالة كل بينة من بينات هذه الملحمة ، وهي لا تحصى . فاحيل كل قارىء لم تتسن له مطالعة الالياذة بالفرنسية او الانكليزية ، الى مطالعة الترجمة العربية التي انا بصددها الآن ، ليلمسوا فيها تلك الحياة الرائعة الزاخرة بألوان شتى من الحقائق الانسانية التي تنبض بها الالياذة والتي هي بمثابة قواعد ثابتة للنفس البشرية اذ لم تستطع الايام ولا القرون العديدة التي مرت على البشرية أن تغير من هذه القواعد رغم الاوضاع والاحداث التي تقلبت عليها منذ نظمت ملحمة الالياذة حتى يومنا هذا . والترجمة مستهلة بمقدمة ، شرحت فيها الاديبة ملحمة الالياذة من الوجهة التاريخية والجغرافية والادبية . فنحن نقدر جهود السيدة عنبرة سلام حق قدرها . ونشكرها على قيامها بهذا العمل الذي يعتبر بحق عملاً جليلاً وجباراً ، لانه سد ثغرة في الادب العربي بقيت فاغرة حتى هذا العهد .

دمشق — ملك طرزي

كليوبترة في خان الخليلي

للاستاذ محمود تيمور بك — ٢١٥ صفحة — مطبعة الاستقامة بالقاهرة

قرأت في هذا الشهر كتابين للاستاذ محمود تيمور القاص المصري المعروف ، هما « حواء الخالدة » و « كليوبترة في خان الخليلي » . وليس من همي هنا ان الخص موضوع كل كتاب ، فما احب ان احرم القارىء لذة مطالعتها كاملين ، ثم انني اعجز عن تلخيصها تلخيصاً بعيداً عن التشويه . وانما ابغي ان اثبت ملاحظات اجمالية تشكل الخطوط الكبرى لانطباعاتي وتأثراتي الخاصة بعد تلاوة الكتابين .

فاما « حواء الخالدة » فتتناول قصة عنترة وعبلة المعروفة في الادب العربي القديم ، ولكنها تتناولها على نحو جديد من الرواية والكتابة والتحليل والوصف : وهي قصة معركة المرأة والرجل في ميدان الحب ، وانها لمعركة باقية ابداً . وفصلا المسرحية الاولان يملكان النفس ، ويمسكان النفس بروعة السرد ، وقوة الحوار وعنصر التشويق . ولكن القارىء لا يمكن الا ان يستشعر بعض الملل في الفصل الثالث ، لعل مبعثه التردد ، وطول الحوار الى انعدام الحادث او المفاجأة . واحسب انني مصيب اذا قلت ان خاتمة الرواية كانت على شيء من الضعف والغموض ، ومرد ذلك الى الحادثة نفسها التي لا تسجل خطوة جديدة موضحة حاسمة في الرواية ، واعتقادي ان « عقدة » القصة ينبغي ان تكون شيئاً آخر ، غير جمع للحوادث التي تضمنتها ، او تلخيص لها ، وانما هي مرحلة اخيرة منها يكون فيها الشرح والعبرة والغاية التي يقصدها المؤلف ، فان عنترة حين ينتهي الى حمل عبلة في الهودج لغزو بني فهد ، ليس الا معبراً عن تلك العاطفة نفسها التي ما فتئت تتردد عليه فيستكين لها تارة ، ويستعلي اخرى ، وما يتخذ منها امراً حاسماً غير مضطرب .

اما مزايا القصة ، وهي مزايا المؤلف ، فتتلخص في مقدرة كبيرة على تركيز ابطال الرواية ، وابراز شخصياتهم منذ الكلمة الاولى التي ينطقون بها ، او الحركة التي يأتونها . وقد بلغ الاستاذ تيمور في وصف طبيعة المرأة ، وتصوير احاسيسها وخلجاتها في الاحاديث التي يجريها على لسانها مبلغاً كبيراً من التوفيق والصدق ، لا سيما ابراز عاطفتي الغيرة والحسد ، كما ان الفكاهة التي يعمد اليها بين آن وآخر توفر المسرحية احد عناصر النجاح الهامة .

*

واذا انتقلنا الى « كليوبترة في خان الخليلي » وجدنا انفسنا في جو جديد كل الجدة سواء بالنسبة الى تيمور نفسه ، ام بالنسبة الى القراء . فان القاص المصري لا يعالج الرواية في هذا الكتاب الا كوسيلة لبث الفكر بل الاصح ان يقال انه لم يقصد الى ان يجعل من « كليوبترة في خان الخليلي » رواية تقوم على روعة الحوادث لان حادثتها ليست جديرة بان تكون موضوع قصة ، لامعانها في الاستحالة والخيال ، ولانعدام الحبك القصصي . واذن ، فتلك خطوة جديدة يخطوها الاستاذ تيمور نحو « الفكرية » ويعتمد في سبيل ذلك طريقة « الرمزية » . ويقصد — فيما يقصد — الى ان يظهر ان فساد الحياة الدنيا قد بلغ من الشدة بحيث ان اقوى عناصر الخير لن تؤثر فيه ، بل هو حري ان يؤثر بشره على هذا الخير ، وهذا واضح كل الوضوح من تغير تيمورلنك وكليوبترة ، هبطا من عالم الروح نقيين خيرين ، وسرعان ما طغت عليهما مفاتن الحياة ومغرياتها فقلبتهما الى انسانين كسائر الناس . فاستعاد تيمورلنك طبيعة الطغيان والجبروت التي اشتهر بها في حياته ، وعادت كليوبترة تهتم بزينتها وجمالها وتؤلب حولها المعجبين والعشاق وتذكي بينهم نار المنافسة والغيرة ، ومن اجل ذلك ايضاً اخفق مؤتمر المدينة الفاضلة فاذا هو يعقد اجتماعاته وما يلبث ان يفضها دون ان يتوصل الى اي قرار ، ودون ان يعدو في عمله حد الشكليات .

اما الرمزية فيتوسل بها المؤلف لعرض قوى الدول العالمية الكبرى والمقارنة بينها واستخلاص خصائصها ، ولوصف ميزات الشعوب بشيء غير قليل من الدقة والصدق والمهارة ، ويرمز الى هذه القوى والدول باشخاص الكتاب « كارتن » الاميركي والعملاق الروسي ... وفيما بين ذلك ، يعالج الابطال قضايا فكرية عالية كالمساواة وتبرير انكارها بكثرة الفروق الطبيعية ، وكضرورة تلازم الغريزة والعقل لخير الانسانية (ص ٣١ — ٣٤) ومعالجة قضية الديموقراطية في محاسنها ومساوئها (١٥٥) ، وتتوفر في الكتاب كثير من الآراء الصائبة ، واللفتات الفكرية الصحيحة .

وتتوضح فيه خصائص المؤلف التي اشرت اليها في الكلام عن « حواء الخالدة » : تركيز الشخصية بقدرة عجيبة فرئيس المؤتمر هو ذلك الرجل الذي لا يفتأ يحك رأسه باصبعه ، و « عبد العال » هو الحاجب المتشائم الساخر الهازيء الذي يشرب مغلي النعناع الخ ... وقوة الفكاهة ، وبراعة التحليل ، وجمال العرض .

واذن ، فان ناحية جديدة من شخصية الاستاذ محمود تيمور الادبية تتبدى في ثنايا سطور هذا الكتاب ، هي ناحية التفكير المقصود لذاته ، ولاريب في ان القاريء الذي اعتاد ان يقرأ لتيمور القصة الرائعة اليسيرة التي تترك في النفس اشتاتاً من عواطف الحب والرفق والجمال ، والتي تؤثر التأثير العاطفي ، واجد حظاً من الصعوبة في الانغمار بهذا الجو الجديد الذي يخلقه تيمور بالرمزية والفكر ، وشاعر ان به حاجة للاستزادة من هذا الجو في سبيل تلمس خصائص هذه الناحية الجديدة من ادب القاص المصري الكبير .

سهيل ادريس

« بين العلم والادب »

للاستاذ قدري حافظ طوقان — ٣٠٨ صفحات — مكتبة فلسطين العلمية

مما يبشر بالخير الكثير ، وبالنهضة الادبية والعلمية المرتقبة ، انصراف بعض المكتبات الكبرى في فلسطين ، في الآونة الاخيرة ، الى نشر المؤلفات العلمية والادبية ، ولو في نطاق محدود ، ولادباء وكتاب معينين ، بسبب الظروف السيئة التي ما تزال قائمة الى الان ، فقد قامت مكتبة الطاهر ، والمكتبة العصرية ، في يافا ، ومكتبة فلسطين العلمية ، ومكتبة الاندلس ، في القدس ، بنشر عدد غير قليل من الكتب القيمة ، مما اخرج الادباء والكتاب الفلسطينيين من متكفاتهم الى حيث يتصلون بالجماهير في ميدان النضال الفكري ، وخرج بنتاج قرائحهم الى حيث يفيد ويثمر ، ويساعد على نضج النهضة الفكرية القائمة الان في هذا القطر العزيز .

ومن اجل الكتب التي ظهرت في هذه الايام ، كتاب « بين العلم والادب » للكاتب الفلسطيني المعروف قدري طوقان ، احد الافراد القلائل في الشرق العربي ، الذين وقفوا حياتهم ومواهبهم للعمل في الحقل العلمي ، ووقفوا نشاطهم وذكائهم على تبسيط العلوم الجافة لامتهم ، ليحسنوا توجيهها التوجيه العلمي الذي هو وحده يستطيع ان يرفع عنها كوابيس الذل والخنوع ، متى احسنت استخدامه .

ويحتوي هذا الكتاب على سبعة وثلاثين فصلاً مما كان المؤلف قد نشره على الناس ، اما عن طريق المجلات ، واما عن طريق المذياع . واغلب هذه الفصول علمي ، والباقي يستهدف بعض نواحي الاصلاح ، والتوجيه الاجتماعي والاخلاقي والقومي . وفي القسم العلمي فصول تدور على التعريف ببعض كبار رجال العلم ، وذكر شيء من اخبارهم وآثارهم ، وبسط ما يسمح المجال ببسطه من نظرياتهم واختراعاتهم . وهي فصول قيمة كل القيمة على قصرها وعدم تمكنها من الاحاطة الكافية بمواضيعها .

والذي يعنيني في هذه العجالة هو الاشارة الى الفصول الكثيرة

التي يضمها الكتاب ، في نواحي التوجيه القومي والاجتماعي والاخلاقي ، وان امضي في دراستها وتحليلها ، بايجاز بحسب ما يتسع له المجال ، على ضوء المقدمة التي وضعها المؤلف لكتابه ، وهي مقدمة جديرة بالدرس والعناية ، لان فيها توجيهاً قيماً ، وفيها في الوقت نفسه توضيح لغرض المؤلف من نشر كتابه .

يقول المؤلف في هذه المقدمة : « ان الجهود على تنوعها ، يجب ان تتجه نحو اهداف سامية نبيلة ، وذلك بايجاد الوسائل التي تدفع العرب الى الاقتداء بالعاملين المنتجين النافعين ، والى جعلهم يؤمنون بقابليتهم ، ويشعرون بالمسؤولية تجاه المجموع في امتهم ووطنهم .

وعلى هذا الاساس يجب ان يقوم الانتاج الفكري على انواعه . . ذلك لاننا نؤمن بأن الواجب القومي يحتم علينا توجيه الجهود كلها لرفع مستوى الامة ، والعمل على خلق العوامل التي تمهد لها طريق المجد والنور » .

فاذا رحنا نطبق هذا القول — او هذا المبدأ — على ما يضمه كتاب « بين العلم والادب » بين دفتيه من فصول ، وجدنا هذه الغاية السامية متبدية لنا في القسم الاكبر منها ، على مقاييس متفاوتة : موفقة في الاغلب ، وقليلة التوفيق في الاقل . فهناك فصول تستحق منا كل العناية ، كما تستحق كل الاكبار ، لانها توجيه قومي نبيل وحكيم ، ومنها : (١) حاجاتنا لما يحيي الخصائص العربية ، (٢) موقفنا من الحضارة ، (٣) حول محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، (٤) خدمات امين الريحاني القومية . ولعل اروع فصول الكتاب : « موقفنا من الحضارة » ، و « اهدافنا » ، فالتوجيه فيها يبدو على اخاصه وانبله واشده حكمة ، وفيها — وكذلك في فصل « معجزته في صدقه » — يمتزج العلم الصحيح ، بالادب الرفيع ، وبالوطنية المخلصة ، بطريقة تبعث على اشد الاعجاب والاكبار .

وفي الواقع ان الناحية القومية في كتاب الاستاذ قدري طوقان ، هي ابرز ميزاته وخصائصه ، فهو كثير العناية بنبش الآثار العربية ونشرها ، ليظهر للعالم فضل هذه الامة العريقة على الحضارة العالمية ، وطول باعها في خدمة العلم . وقد كتب في هذه الناحية كثيراً ، فوفق كثيراً . ويجد المطالع شيئاً من هذه الكتابات القيمة في كتابه « تراث العرب العلمي » الذي اصدرته مجلة « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وفي كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » الذي اشترك في تأليفه الاستاذ طوقان مع جماعة من ابرز الكتاب المصريين سنة ١٩٣٢ .

لم يتخل عالمنا الفاضل في كتابه الذي بين يدينا الآن : « بين العلم والادب » عن تلك الميزة البارزة في كتاباته وبحوثه ، فقدم الينا الفصول الرائعة التالية : (١) المهدون للاكتشاف والاختراع ، (٢) حول التراث العربي ، (٣) حول محاضرات ابن الهيثم التذكارية ، (٤) الملاحة عند العرب ، (٥) ابن ماجد اسد البحر الهائج ، وذلك ليطلعنا على شيء من مآثر اسلافنا العظام ، ليحفزنا على التخلق بأخلاقهم ، والجري على سنتهم الرشيدة .

ومما يستحق الاكبار والثناء هذه الروح التي يحاول الاستاذ المؤلف الفاضل ان يطبع بها من تمنيهم بحوثه ، وهي الروح العلمية المهذبة بالاخلاق الفاضلة ، لان « العلم ان لم يحط بسياج من الاخلاق والفضائل ، انقلب الى قوة هدامة مخربة » كما يقول وهو يبشر بهذا المبدأ ، ويشرحه ، ويتحمس له في فصول كثيرة من كتابه ، وعلى الاخص في : « العلم والخلق » ، و « موقفنا من الحضارة » ، و « الحرية المقيدة » .

والى جانب هذه الفصول القيمة في العلم ، وفي التوجيه القومي والاجتماعي ، نجد فصولاً ضعيفة النسج لانها تسير على طريقة وعظية ، لا تساوق بقية الفصول ، وهي لا تدخل ضمن دائرة اختصاص عالمنا الفاضل العلمية العالية وكنا نفضل لو خلا الكتاب منها ، لتظل له صبغته العلمية والادبية الموفقة . تلك الفصول الضعيفة هي التي تستهدف التوجيه الاخلاقي ، مثل : « من هو المثقف » ، و « الاحسان » ، و « العلم الصحيح » ، و « الى المعلمين والمثقفين » وغيرها . فهذه الفصول يدخل اغلبها في دائرة اختصاص علماء الدين في المساجد والكنائس ، وطريقتها لم يعد لها مكان في علوم العصر الحاضر ، وفي تفكير اهله .

اما اسلوب الاستاذ طوقان في كتاباته ، فهو اسلوب ادبي رشيق لطيف ، يتميز بوضوحه ، وحسن ديباجته ، وبعده عن التعقيد والابهام .

وفي الواقع ان الاستاذ المؤلف قد وفق في اغلب فصول كتابه هذا الى القيام بما رمى اليه في مقدمته ، من تقديم التوجيه الممكن لامته وخدمتها عن طريق العلم والمعرفة ، مما يستحق عليه الثناء الجزيل .

(كلية تراسانتا — القدس)   عيسى ابراهيم الناعوري

غيوم

للاستاذ رياض معلوف (بالفرنسية – ٦٠ صفحة – سان باولو)

عرفنا رياض معلوف في ساعات اللامبالاة والحزن والحنين التي ميزت ساعات ما قبل الحرب، ولن انسى ما حييت تلك اللحظات التي قضيناها على ضفاف البردوني، في مقهى بزحله، العام ١٩٣٨، حيث تبادلنا حديث الشعر ...

وقد اصدر رياض معلوف آنذاك مجموعة شعر بعنوان « لازورد » كانت تَعد بمستقبل شعري غني. وها نحن نقرأ اليوم « غيوم » مجموعة انيقة صدرت في البرازيل، وليست هي وعداً بعده، ولكنها تبلور فن دقيق، بل اني اذهب الى القول بانها انقى الشعر الذي قدم الي للقراءة ...

ان في « غيوم » اقباساً من « فرلين » ومن « نشيد الاناشيد » اروع كتب الشعر الخالد. وان القاري، ليكتشف فيها قلائد ويواقيت اخرجتها يد صناع ...

ورياض معلوف ينتسب الى تلك الفئة من الشعراء اللبنانيين، الذي يشرفون عالم الادب العربي، لانهم ادباء خليقون بان يبدعوا في اللغات الاجنبية ابداعهم في لغتهم الام. ورياض معلوف هو في مستوى « القرم » و« ابي زيد » يقول رياض مما يقول :

في كل خفقة
من جفنيك ...
حلم ...
مجنح

. ان اسم رياض معلوف سيظل في عداد كبار الادباء الذين يعبرون عن مشاعرهم بلغة ثانية غير اللغة الام .

ريمون لوار

اشعار جبران
ذكرى الامير امين ارسلان

للاستاذ موسى كريم – ١٩١ صفحة و ٢٥٨ صفحة – سان باولو

هذان كتابان الفهما المواطن اللبناني باللغة البرتغالية، الاستاذ موسى كريم صاحب مجلة الشرق البرازيلية يضم اولهما مجموعة مختارة من شعر جبران خليل جبران مترجمة الى البرتغالية . ويهدف المؤلف من نشره هذه المجموعة تبيين مـا قام به جبران من مزج بين الروح الشرقية وبين الثقافة الغربية فكان من آثار هذا المزج ادب ممتع وثروة غنية للعالمين الشرقي والغربي .
ويقول الاستاذ الفرد عيسى عسيلي وهو الخبير بدقائق اللغة البرتغالية في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب ان الاستاذ كريم قد وفق توفيقاً بعيداً في ترجمته وفي اضفائه جو جبران وروحه على القطع المترجمة .

اما الكتاب الآخر فيضم مقالات شتى كتبها الامير امين ارسلان مع مقدمة عن حياة الامير ومكانته، وتتناول هذه المقالات النواحي التاريخية والسياسية وتخص الشرق العربي بقسط وافر من العناية فمن المقالات التاريخية : محمد، الف ليلة وليلة، هدنة باريس ١٨٧٠، تاريخ الجاسوسية، اصل الطابور الخامس، الحملات الصليبية، كيف وقعت حرب القرم، البانيا والملك زوغو، القضية التونسية .
ويخص لبنان بمقالين اولهما عن بيروت، والاخر عن الارز (الذي هو اقدم من التاريخ) .

وقد يتخلل الكتاب بعض المقالات العامة مثل عرضه هذه القضية « هل يلتقي الشرق بالغرب ! » ومهما يكن من شيء، فان هذين الكتابين خير دعاية للفكر العربي بين الشعوب التي تتكلم البرتغالية .

الاوثان

للاستاذ ميخائيل نعيمه – ٦٨ صفحة – منشورات مكتبة صادر بيروت

هذه الوثنية الحديثة – التي تعصف باعصارها، فتلفح وجه انسان العصر، وتطبع معالم نفسه وعوارفها، وتوشح بالعفونة اقدار قيمه الحق – اسوأ اثراً من كل وثنيات العصور، وامضى فعلا وقدرة على مسخ هذا الكائن .

فهي لا تزال تحول به شيئاً وراء شيء، حتى تنحط به وينحط معها في درك قاتم من « التجهل »، وترغمه في حمأة نتنة من بوار الذات، الشائعة بمعناها في كل شيء، والطائف في معناها كل شيء .

لقد كان في وثنيات العصور، معـنى محبب ورمزية قد تسمو فترتفع بكنه الانسان .. كانت وثنيات، تبدأ بالمادة – وان تك تعبيراً عاجزاً – لتنتهي في اتجاه حكمة المعنى .

اما وثنية العصر، فهي بغيضة متجهمة لا مائية ولا رمز، بل هي ترذل المعنى وتحقر الرمز او تتغول بهما .. انها وثنية تبدأ بالمادة وتنتهي بها في انحدار طامس، فهي فوق كونها وثنية مادية – اي تعبيراً مستحجراً عاجزاً – انت مريضة ايضاً .

وكأن طغواها اهابت بالاستاذ نعيمة ، فاذا هو ينقم واذا هو يتمرد، فيفضحها على اي وجوهها، متحدياً سدنة هيكلها الضال التائه .

انه اطل عليها من كوة ذاته فاخافته ، على انه ازور وتمادى به الازورار، الى اشمئزاز حاقد، الى حقد مغيظ متميز . . ذلك الحقد الاقدس الذي يخالط المصلحين اواره ، وتمشي في ضمائرهم وعلى اعصابهم شعلاته ، فيرسلونها صرخات داوية مصلحة ، تحرق بالشرر وتنير الطريق بالشعاع . . واسمعه كيف يقول في ص ٦٦ :

« وعجيب هو الانسان ، ولكنه ليس عجيباً بجسده على ما في جسده من هندسة ، ولا هو عجيب بعقله على ما في عقله من سحر ، ولا بخياله على ما في خياله من عظمة وجلال . وانما عجيب هو الانسان بطموحه الى ما هو ابعد من الجسد والعقل والخيال . . . فلا نمو بعده انحلال . لانزول بعد صعود ، بل وجود يعانق الوجود ، وحياة تعانق الحياة .

وعلام لا يكون للانسان ذلك ؟ اوليس الانسان بذاراً مقدساً من نواة الحياة الشاملة المقدسة . . فما اسخفنا وميراثنا الحياة — كل الحياة — بجمالها وجبروتها ، ننصرف عن ميراثنا ، الى عبادة اوثان ليست من الانسان الا بمثابة مفروزات الجسد من الجسد ، والى التناهش من اجل ما تهبنا الارض ، وما الارض الا محطة من محطات كثيرة نمر بها في طريقنا الى ميراثنا . . وما اعظمنا — والآزال والآباد في قبضتنا — نمشي يداً بيد وكتفاً الى كتف معرضين عن غبار ، تثيره اقدامنا جادين في السير نحو ميراثنا الذي لا يحجبه غبار ، واثقين من قدرتنا على الوصول اليه ، ومن حقنا بالمعرفة التي تحرر وبالحرية التي تعرف » .

ونحن — وان كنا نتفق معه ونماشيه الى مدى بعيد — لسنا نوافقه ، على ان القومية بعض من وثنية العصر ، فان القومية منزلة من منازل الاعداد في اتجاه الهدف .

القومية — ولنستعمل تعابير الاستاذ — استثارة وتزويد بخصائص « البصيرة » في ميدان التخاق الجديد ، فلا ينحرف كل الانحراف ويضحي تخلقاً « بصرياً » صرفاً .

فالقومية اذن ضرورة حتى في حدود منطق الاستاذ ـ في فصل « الغرب والشرق او البصر والبصيرة » من البيادر — حينما تستخلص النتائج من المقدمات وتستنبت الفروع عن الاصول ، على ما يقضي به التلازم العقلي من الاتساق والضرورة ، وان جاء هنا في « الاوثان » يأخذ عليها ويغض منها . . والا — اذا لم تكن الرابطة او الملازمة العقلية قائمة موجبة — فلا تزيد الافكار عن انها التماعات متشعة ، ليس بينها طواعية ان تؤلف نظاماً فكرياً او اساساً فلسفياً للتأمل والسلوك .

وحسن ان هذه الرسالة ، جاءت وهي تحمل في كثير من انحائها ، آلة الهدم ومادة البناء .

لقاء

٢

للاستاذ ميخائيل نعيمة — ١٥٠ صفحة — منشورات مكتبة صادر بيروت

هي قصة « النرفانا » الشرقية وليس بكل طوابع الروح الشرقي ، وقصة « الفيثاغورية » الغربية وليس بكل طوابع الروح الغربي ، بل هي « لقاء » في ملتقى الروحين ، الذي هو نقطة الابتداء في اخذ الطريق ، واستشراف الدرب القاصد في حيرة الدروب .

ولقد جاءت معبرة في وضوح عن كل مقتضيات هذا الاخذ ، ومصورة صادقة لكل تحولات الروح في مراحل هذا « السلوك » على حد تعبير المتصوفين .

والجميل في هذه الصوفية انها صوفية فنية في نوع من الاتحاد الصميم اللحمة ، ونوع من التلاشي الحي . . وقد اتخذت هذه الصوفية معارجها ، على « براق » الفن الخالص ، وما هي حتى تشرف بك من قمتها ، الى الكل الى الاشياء غير المتسقة ، فاذا وجميعها بناء فني قائم عود بالاتساق . حتى المرض ، فهو ظمأ الى الاتساق وتهوع من النشاز العالق ، اما الموت كما نعرفه في الطبيعة الجزئية فهو السقوط في ضحل النشاز الطامس الضاج . . .

والغريب في القصة — اذا درست في اجزائها وحوادثها واشخاصها — انها مستوحاة دون شعور ، من حادثة الدكتور داهش المنوم المغناطيسي المعروف . . فان البطل « ليوناردو » يتهم بالسحر والشعوذة والتزوير ، ويعتقل ويسام اشد الخسف ، وهو « يؤمن بالصحو والتقمصات والسيالات » ويبشر بها . و« سليم الكرام » الذي كاد وبيت له ، و« السيدة وداد » اخت الكرام المنكورة من اخيها ، والتي تسعى وتجاهد من اجل انقاذ البطل « ليوناردو » الخ . . .

انها تشبه قصة داهش في تفاصيلها واجزائها وسير حوادثها ، فهل هواه اليه ؟ . ام هو يحس في نفسه بمعناه ؟ .

هذا ما لسنا نستطيع ان نميل معه ممالاً ، وان كان من ضرورة الدرس ان يتحرى ويستقصى .

عبدالله العلايلي

جولة الأديب في شهر

الثقافة في جامعتين

لا اريد بالجامعتين جامعتي فؤاد وفاروق ولا الجامعة المصرية والسورية او غيرها من الجامعات التي قد تبدر لخاطر كل قارىء . ان الجامعتين اللتين اود ان اجمع بينهما في حديثي هنا هما الجامعة الشعبية التي انشئت في مصر في مطلع هذه السنة، وجامعة الدول العربية التي انشئت في العام الفائت . والحديث عن الاولى حديث عن الثقافة الشعبية التي تنشر على جمهور مثقف في مصر فقط ، والحديث عن الثقافة في جامعة الدول العربية انما يدور حول نظام ثقافي جديد يربط البلاد العربية وينسق علاقاتها ويوجهها توجيهاً جديداً يدعمه تعاون متين العرى بين جميع الاقطار العربية .

اما الجامعة الشعبية فهي فكرة ينبغي ان تنتشر في كل قطر عربي، لان الحاجة تلح بوجوب انتشارها ، وان كانت مصر امس الجميع حاجة اليها . وهي ليست من ابتكار مصر ، فقد سبق الكثير من الدول الغربية ان جربتها، ونشأت فكرة الجامعة الشعبية اول ما نشأت في الدانيمرك وغايتها اتاحة الفرصة لمن لم تسمح له احواله بالاتصال بالدراسات العالية في العلوم والفنون والاداب في الجامعات العادية ، لكي ينال منها حظاً في اوقات فراغه .

وما اسرع ما انتشرت فكرتها في بقية الدول، وقد استغلتها بعض الدول فلونتها بلونها السياسي ، فاصبحت الجامعة الشعبية في كل من المانيا وايطاليا تبشر بالمذهب النازي او الفاشي . كما ان فرنسا أضفت عليها اطاراً من الثقافة الذهنية البحتة، والولايات المتحدة اغرقت جامعاتها الشعبية بجو عملي يتصل بصميم الحياة اليومية الواقعية .

والجامعة الشعبية في سويسرا اقرب الى ان تكون مدرسة عالية للجمهور ينظم فيها عدد من سلاسل المحاضرات في جوانب شتى من المعرفة الانسانية العالية ليس لها برنامج عام دائم ، وانما هناك برنامج يوضع في مطلع كل فصل دراسي حسب ما تقتضيه الظروف وحسب تطور الحياة الدولية والاتجاه العالمي .

وفي مصر، شقيقتنا الكبرى، يتوقف كثير من الطلاب عن متابعة دراستهم الجامعية لان الحياة تضطرهم الى تأمين مورد رزقهم ورزق اسراتهم، فينصرفون، كارهين، الى الحياة العملية . . وفي نفوسهم آمال كبار خيبتها طلبة العيش، واندفاع طامح حول سبيله فقر او مرض او غيرهما من العقبات الاجتماعية .

وقد اثارت هذه المشكلة احاديث مختلفات بين كبار المشتغلين بالتعليم في مصر، واقترح بعض المفكرين حلولا لانصاف هؤلاء المنكوبين الذين منعتهم الحياة من تنمية مواهبهم واستغلال نبوغهم . فكان من بين هذه الحلول ان تفتح الجامعات ابوابها مجاناً للراغبين، او ان تقر مبدأ الانتساب اليها . . .

ولكن مواعيد الدراسة في الجامعات قبل الظهر، ثم طبيعة هذه الدراسة فيها لا يحل هذه الازمة القائمة ، التي تزداد تعقداً يوماً عن يوم، وتضيف الى الاميين طبقة من المتعلمين ولكنهم اميون في كثير من آفاق المعرفة التي ينتظرون من يفتحها لهم .

ولم يكد الاستاذ احمد امين بك يشغل منصب المراقب العام للثقافة بوزارة المعارف المصرية حتى رأى في انشاء الجامعة الشعبية دواء لهؤلاء المحبين المعرفة التواقين للتثقف ، فانشئت تنفيذاً لاقتراحه ، واشترك في القاء المحاضرات فيها . وقد نجحت نجاحاً لم يكن هو نفسه يتوقعه . وقد استقال اخيراً من منصبه في مراقبة الثقافة ولكنه ترك فيها اثراً جليلاً لا يمكن ان تنساه مصر .

وفي عشية ممتعة من عشايا مصر الجديدة جلست استمع الى الاستاذ احمد امين يحدثني عن هذه الجامعة التي يحس انها تتصل بنفسه بنسب وثيق، فهي اقرب اليه من اي كتاب ألفه، انه يشاهد النجاح الذي تحرزه ويحسه احساساً عميقاً . فيستغرق بالحديث، وخاصة عندما يعلم ان صداها لم يصل بعد واضحاً الى البلاد العربية .

انها جامعة حرة الى ابعد حدود الحرية ، مرنة غاية المرونة ، فالمنهاج مزيج من مناهج الجامعات الشعبية في العالم، وهذا ايضاً ليس

ثابتاً ابداً، فهو يتغير حسب الظروف ويتطور مع تطور الاحوال .
المحاضرات تلقى حسب الرغبة والطلب، لا تتقيد ببرنامج . برنامج لم ينجح فما اسرع مـا يحذف . ليست الدراسة محاضرات خطابية تلقى القاء، ولكنها مناقشة بين المدرس وبين الحاضرين تمتاز بالاسئلة والاجوبة ، وعرض الموضوع بين يدي الحاضرين والانتهاء بالاشتراك معهم الى نتيجة ما .

وليس للدخول نظام ضيق محدود، وليس من الضروري ان يبلغ الطالب مستوى ثقافياً معيناً او يحمل شهادة خاصة بل يكفي ان يقرأ ويكتب ... وان يدفع عشرين قرشاً وهو القسط السنوي .. وذلك ليشعر ان الدراسة ليست مجانية .. وانه يتلقى ما يتلقاه بثمن يدفعه من جيبه !

ويقسم الطلاب الى قسمين عند الدخول، قسم لذوي الثقافة الاولية وقسم لذوي الثقافة العالية .

ولكليهما شعب مختلفة : شعبة سياسية واخرى اجتماعية وثالثة تاريخية او جغرافية او ادبية او تجارية او صناعية او نسوية وشعبة لهواة الفنون الجميلة .

ولم تتقيد الجامعة بمكان واحد يضمها بل كانت موزعة على المدارس ، فالشعبة النسوية في مدرسة للبنات ، والشعبة الصناعية في مدرسة للصناعة ، والشعبة الفنية في معهد للفنون الجميلة .

ولعل في معرفة اكثر الشعب اقبالاً ، ما يدل على اتجاه الجمهور المثقف ، والآفاق التي يود ان يرتاد مفاوزها .. فقد سجلت الشعبة السياسية اكبر عدد من بين الشعب جميعاً ، ويليها شعب الفنون الجميلة والنسوية والاجتماعية .

وتأتي الشعبتان التاريخية والادبية في المقام الثاني من الاهتمام والاقبال ! ..

ويبلغ عدد طلاب هذه الجامعة الشعبية وطالباتها ثلاثة آلاف .

ولم تخل هذه الجامعة من نقد واعتراض فقد قيل انها انشئت في القاهرة حيث تتوفر مراكز الثقافة ، لذلك عزمت الحكومة المصرية بعد ان اقتنعت بصحة التجربة ونجاحها ، ان تتوسع في تطبيق هذه الفكرة وان تنشرها في الارياف وبقية المدن ، وسيشهد العام الآتي في كل مدرسة ثانوية في الاقاليم مركزاً للثقافة الشعبية، وستخصص « لوريات » ثقافية تغزو الارياف وتحمل معها اشرطة سينمائية صحية واجتماعية ، ومحاضرين في شؤون الصحة والزراعة والدين ، ورصد لهذا المشروع خمسون الف جنيه في الميزانية القادمة .

وقد قام الاستاذ احمد امين بك بهذا المشروع الجليل كجزء من عمله في المراقبة العامة للثقافة ، ولكنه عين ، بعد ان استقال ، رئيساً لمجلس ادارة الجامعة ، كي يشرف على هذا المشروع الذي تعهده صغيراً حتى نما وازدهر .. والجدير بالذكر ان الاستاذ العشماوي باشا وزير المعارف هو عضو في مجلس ادارة هذه الجامعة . وليس ببعيد ذلك اليوم الذي تدرك فيه مصر اي اثر طيب واي فضل وخير كان لمشروع الاستاذ احمد امين في جيلها الجديد .. ويزداد هذا الادراك قوة ووضوحاً كلما احيط هذا المشروع الفذ بالرعاية ووسائل النمو والازدهار .

واما نحن، في لبنان ، فلسنا ننتظر ان تقوم بيننا جامعة للثقافة الشعبية لان حكومتنا تعتقد ان على الشعب ان يعلم نفسه وان يدفع الاجور الباهظة ليلتحق بالجامعات الاجنبية .. وان يؤدي بعد ذلك الضرائب للحكومة ، دون ان يسأل اين اصبحت مناهج التعليم الجديدة ؟ ولماذا لا تجلي النفوذ الثقافي مع جلاء النفوذ العسكري؟

*

واذا كانت الجامعة الشعبية تنشد تعميم الثقافة العالية ونشرها في اوساط الجمهور المصري، فان على جامعة الدول العربية تنسيق التعاون الثقافي بين البلاد العربية لاحياء تراثنا المجيد واعداد مستقبل ينهض فيه العرب ليقوموا باداء قسطهم من الحضارة الحديثة

ومن اجل ذلك وضعت المعاهدة الثقافية التي اقرها مجلس الجامعة في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٥ واحالها الى اللجنة الثقافية لتضعها موضع التنفيذ . ولما كانت المعاهدة تحتوي على اعمال ومشروعات واسعة النطاق فقد قسم العمل بها الى جزئين، الجزء الاول ينبغي له جمع الوثائق التمهيدية والجزء الاخر يمكن ان يباشر بتنظيمه حالاً .

وبالرغم من ان جلسات اللجنة الثقافية كانت قليلة في عددها في دورة شباط الاخيرة الا انها كانت غنية بما اثمرت من نتائج .

معهد احياء المخطوطات العربية

وفي مقدمة هذه الثمرات مشروع انشاء معهد احياء المخطوطات العربية ومن المعروف ان المخطوطات العربية مبعثرة في دور الكتب العالمية وعند الافراد وفي الاسواق، ولا يتناول الباحثون العرب والمستشرقون الا عدداً من المخطوطات لا يصلون اليها الا بعد ان يقاسوا الواناً من العناء والمشقة . وهي، بعد ، لا تفي بحاجتهم ، فتنشر نشراً موقتاً غير كامل .

وهذا وضع يبدو غريباً بعد ان استغلت المخترعات الحديثة

لتيسير هذه الامور، فالمخطوطات اليونانية واللاتينية موضوعة تحت تصرف الباحثين في اقطار العالم، وذلك بفضل تصوير المخطوطات على افلام صغيرة بحيث ان الف كتاب لا تستوعب اكثر من صندوق صغير، وفي مكتبة الكونغرس الاميركية اليوم صور لمليوني كتاب.

ومهمة معهد احياء المخطوطات في الجامعة العربية جمع فهارس المكتبات العامة والخاصة، وتصوير اكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة، وتجمع هذه المصورات وتوضع تحت تصرف من يطلبها من الباحثين ودور النشر، وقد تقوم الجامعة نفسها بنشر بعض هذه المخطوطات.

حماية الملكية الادبية والفنية

وألفت لجنة من بعض الادباء والفنانين لوضع تشريع لحماية الملكية الادبية والعلمية والفنية لما ينشر في كل دولة من دول الجامعة العربية، وذلك تنفيذاً المادة الخامسة عشرة من المعاهدة الثقافية.

ورئيس هذه اللجنة هو الدكتور السنهوري باشا وسكرتيرها هو الاستاذ يوسف العش ومن اعضائها الاساتذة، محمود تيمور، انطون الجميل، توفيق الحكيم، محمد عبد الوهاب، بيرم التونسي، يوسف وهبي.

وعسى ان توفق هذه اللجنة لوضع مشروع ييسر الترجمة الى اللغة العربية والتأليف فيها وينظم حقوق المؤلفين ويقضي على الفوضى المنتشرة في عالم النشر.

مؤتمر الثقافة

قررت اللجنة الثقافية عقد مؤتمر ثقافي عام، يعقد في الخريف القادم، في لبنان على الاغلب، يضع الاسس التعليمية التي من شأنها ان تقرب بين المناهج وايجاد التعادل بين المراحل الدراسة ليكون تكوين النشء الجديد موحداً في العالم العربي.

ويضع هذا المؤتمر الحد الادنى الاولي الذي ينبغي ان يعرفه كل عربي من الثقافة العامة، اذا انهى الدراسة الابتدائية.

ويتصل بهذا الموضوع موضوع آخر لا تزال الآراء مختلفة فيه وهو كيفية تدريس اللغة العربية، اذ لا يزال تدريسها ابتدائياً. وكثيراً ما يشكو المدرسون والطلاب من سوء البحث فيها وصعوبة تدريسها وقلة الكتب الصالحة وعقم الطرائق المتبعة. فاللغة العربية هي العنصر الاول من عناصر قوميتنا، واختيار احسن الاساليب في تدريسها وتنسيق برامجها امر له اثره البعيد في اتجاه الامة العربية.

وتمهيداً لعقد المؤتمر علمت من الاستاذ يوسف العش وكيل ادارة الشؤون الثقافية في الجامعة العربية، وهو الذي اتاح لي الاطلاع على مقررات اللجان وسيرها وتطور ابحاثها، علمت منه ان الجامعة طلبت من الحكومات العربية ان ترسل اليها مناهج التعليم.. فوصلت اولاً مناهج سورية فالعراق، فشرقي الاردن فمصر..

وسيفرغ صبر الجامعة العربية، ولا شك، قبل ان يصل رد لبنان. ايقول لها لبنان انه يعلم طلابه بدون مناهج؟ ام يقول ان اللجان التي ألفت منذ سنتين ونصف لم تنته بعد من مهمتها الشاقة؟.. أم يدخل لبنان الى الجامعة ومعه مناهج الانتداب دون خجل..

وستبحث هذه المناهج لجنة تحضيرية للمؤتمر وتستخرج منها فكرة عما يجب ان يكون عليه الحد الادنى للثقافة وتضع عدة اسئلة توجهها الى عدة شعب محلية للجنة في كل بلد عربي.

وتدرس هذه الشعب المحلية الاسئلة وتقدم اجوبتها عليها ومقترحاتها وابحاثها حول الموضوع.. وبعد ان تتم هذه المرحلة تجتمع اللجنة التحضيرية للمؤتمر وتضع صيغة للمشروعات التي تقدم الى المؤتمر وتدرس وسائله ومكانه وزمانه الذي ينبغي ان يكون قبل مضي سنة من تاريخ انعقاد اللجنة الثقافية في دورتها السابقة (شباط – اذار).

الثقافة بين الجامعة وبين منظمة الامم المتحدة

ومن الموضوعات التي اثارتها اللجنة الثقافية موقفها من هيئة الامم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة، فمن الضروري، ولا ريب، ان تؤثر لجنتنا العربية في الهيئة العالمية وان تتأثر بها حتى يسهم العالم العربي بنصيبه في تقدم العلوم والحضارة والثقافة في العالم الجديد، وينتفع، في وقت معاً، بما تبذل الانسانية من جهود ثقافية.

ومن اجل توثيق الصلات بين الهيئتين العربية والعالمية ينبغي ان تبحث اللجنة العربية الموضوعات الثقافية التي تعرض على الهيئة بحثاً تستجلي فيه ما يعني البلاد العربية منها، وكذلك ينبغي ان يوحد ما امكن بين مندوبي الدول العربية في كل من الهيئتين.

*

هذه جولة خاطفة في جامعتين شهد العالم العربي مولدهما حديثاً، لم نستطع الوقوف طويلاً – وما اجدره – عند آثارهما. ولعل لنا عودة تكون اكثر تأملاً وتفصيلاً.



٢ نيسان ١٩٤٦ – عينت الحكومة البريطانية وفدها لاجراء المفاوضات مع مصر، ويتألف وفدها من المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية واللورد ستانسجيت وزير الطيران والسر رونالد كامبل سفير بريطانيا في مصر .

٣ – وصل الى مجلس الامن الدولي جواب روسيا وايران على الاستعلام الذي سبق ان وجهه اليها بشأن سير المفاوضات الدائرة بينهما . وكان المجلس قد حدد هذا اليوم آخر موعد لتقديم الجواب .

استأنف الصهيونيون في فلسطين اعمالهم الارهابية فقطعت عصابات منهم سكة حديد القاهرة – بيروت في اربعة مواضع .

٤ – اجل مجلس الامن الدولي بحث النزاع الايراني السوفياتي بعد ان وعدت روسيا بجلاء قواتها نهائياً في ٦ ايار القادم .

الفت الوزارة اليونانية من حزب الملكيين وحزب الكتلة المركزية برئاسة القاضي بوليتراس .

٥ – قدم الوصي على عرش اليونان استقالته الى الملك جورج ملك اليونان .

جرى في طهران التوقيع على اتفاق جديد بين روسيا وايران ، وينص الاتفاق على جلاء الجيوش السوفياتية في خلال ستة اسابيع عن ايران ، كما انه ينص على اتفاقات بشأن البترول وبشأن الحالة في آذربيجان .

٦ – القى الرئيس ترومان خطبة في شيكاغو وجهها الى شعب الولايات المتحدة بسط فيها سياسة اميركا الخارجية وبين اهمية الشرق الادنى وضرورة العناية بحل مشاكله .

٨ – عقدت عصبة الامم جلستها الاخيرة في جنيف وقررت احالة جميع مستنداتها واوراقها واموالها الى هيئة الامم المتحدة .

١٠ – اعلن اليوم في فلسطين اضراب عام شمل جميع موظفي وعمال دوائر البريد في جميع مدن فلسطين .

١١ – ارسل وزير الخارجية البريطانية المستر بيفن برقية الى دامسكينوس الوصي على عرش اليونان يرغب اليه في ان يبقى في منصبه .

١٢ – وافق دامسكينوس على طلب المستر بيفن في ان يظل وصياً على العرش .

بدأت المفاوضات البريطانية الهولندية بشأن اندونسيا وتتناول هذه المفاوضات سحب الجيوش البريطانية من جاوه ودرس الوجهة الدستورية في القضية الاندونسية .

١٣ – ختم مجلس الجامعة العربية دورته الحالية، وقد قدم مندوب لبنان دعوة رسمية من حكومته تطلب فيها الى الجامعة ان تعقد جلستها القادمة في لبنان فتلقى المجلس هذه الدعوة بالشكر .

١٤ – تلقت الامانة العامة للجامعة العربية ان الحكومة الفرنسية وافقت مبدئياً على عودة سماحة الحاج امين الحسيني الى لبنان .

١٥ – غادرت في الخامس عشر من نيسان الكتيبة البريطانية الاخيرة مدينة دمشق طبقاً للاتفاقية التي عقدت في باريس ونصت على جلاء البريطانيين والفرنسيين عن سوريا في وقت واحد .

اذاعت الحكومة الايرانية بياناً قالت فيه : بما ان السفير الروسي في طهران قد اكد بشكل قاطع لرئيس الحكومة الايرانية بأن القوات الروسية ستنسحب بكاملها قبل السادس من ايار فقد سحبت ايران شكواها من جدول اعمال هذا المجلس .

١٦ – عيدت سورية بأجمعها اليوم عيد الجلاء عن اراضيها ، فأقيمت المهرجانات في كل مكان وقد حضر هذا الاحتفال مندوبون عن الجامعة العربية ودولها .

١٨ – اصيب الملك غوستاف ملك أسوج البالغ الثامنة والثانين من العمر بالوافدة .

اعلنت جريدة الديلي ميل ان حزب العمال البريطاني قد دعا مندوبين عن سائر المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في اوروبا والممتلكات البريطانية الى لندن لتشكيل جبهة دولية ضد الشيوعية .

أبلغت الحكومة الفرنسية الحكومة الاميركية ان مؤتمر الصلح الذي كان مقرراً عقده في اول نوار ارجىء الى اجل يحدده مؤتمر وزراء الخارجية .

١٩ – اقترحت بولونيا على مجلس الامن الدولي اتخاذ اجراءات ضد حكم الجنرال فرانكو ، وأيدت روسيا هذا الاقتراح .

احتل الشيوعيون الصينيون عاصمة منشوريا .

٢٤ – قدم السيد سعدالله الجابري رئيس الوزارة السورية استقالة وزارته الى رئيس الجمهورية .

٢٥ – افتتح في قصر لكسمبورغ بباريس مؤتمر وزراء خارجية الدول الاربع ، وكان وكلاء الخارجية قد اجتمعوا ووضعوا تقريرهم عن الاعمال التي قاموا بها لتحضير معاهدات الصلح مع ايطاليا والدول التي كانت تابعة لالمانيا ابان الحرب .

٢٦ – قطعت بلغاريا علاقاتها السياسية والدبلوماسية مع اسبانيا .

(بقية المنشور على صفحة ٥٨)

وهذه ايضاً :

(رجيت) دهراً طويلاً في الناس اخاً ... يرعي ودادي اذا ما خلته خانا
فكم ألفت وكم اخيت غير اخ ... وكم تبدل بالاخوان اخوانا
وقلت للنفس لما عز مطلبها ... والله لا تألفي ما عشت انسانا

في القطعة الاخيرة ما يلفت النظر فيوجهه نحو الشك ، فالخطأ الصرفي ظاهر في البيت الاول اذ ان « رجيت » من المثال الواوي صوابه رجوت والتعبير « بلا تألفي » في البيت الاخير يشبه ان يكون عامياً ، خير منه « لن تألفي »

سقت هذه العجالة ، لنتبين بعض ما خفي من ملامح شاعرنا الخيام، ولن يضير الادب ان كان الخيام شاعراً بالعربية ام بالفارسية ام بغير هاتين اللغتين فلغة الحياة موحدة الاصداء في مسارب الروح ، والاهم انه غنى لقافلة الحياة لحوناً سبحت في رنينها اعناق المطايا ، ولا تزال آفاقه السحرية مهوى الافئدة ، وفردوس الارواح .

درعا — علي محمد شلق